النص الكامل

أغاثا كريستي

اجاثا كريستى & كتاب رواية

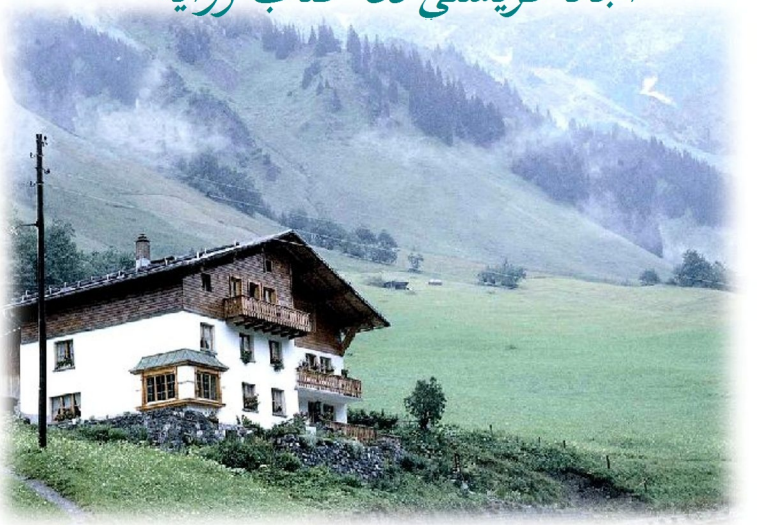

الأربَعَة الكِبَار

facebook.com/groups/agathalovers/

مكتبة الرمحي أحمد

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

٨

Agatha Christie

الأربَعَة الكِبار

اجاثا كريستي & كتاب رواية

facebook.com/groups/agathalovers/

مكتبة الرمحي أحمد

الفصل الأول
الضيف والمفاجأة

كم أدهشتني رؤية أولئك القوم على مقاعدهم الخشبية يعبرون القنال هادئين، فإذا وصلوا انتظروا حتى ترسو السفينة ثم قاموا إلى متاعهم يجمعونه بلا ضجيج.

أمّا أنا فلا أبقى هادئاً ولو حيناً من الوقت، فإذا صعدتُ إلى سطح السفينة أراني بدأت أقلق وأضطرب ويحلّ فيّ شعور بأن الوقت قصير جداً لا يكفي للراحة والقعود، فأنطلق أجمع حقائبي وأحركها من مكان لآخر، وإذا نزلت إلى الصّالة لكي آكل طعامي فإنني أبتلعه بسرعة وربكة مخافة أن تصل السفينة فجأة وأنا ما أزال في الأسفل.

ربما كان هذا ممّا أورثتنيه الحرب؛ فقد كنت إذا أخذت إجازة قصيرة أجعل اهتمامي بأن أستأثر نفسي بموقع قريب من المخرج لكيلا أهدر بضع دقائق ثمينة من إجازتي القصيرة ذات الأيام الثلاثة أو الخمسة.

في صباح ذلك اليوم من تموز (يوليو) كنت أقف جنْبَ الحافة أراقب المنحدرات الصخرية البيضاء في دوفر وهي تقترب رويداً رويداً. لقد أثارني مشهد المسافرين يجلسون على مقاعدهم بكل هدوء، فلم تتحرك مشاعرهم ولا رفعوا عيونهم ليروا منظر وطنهم الأول. ربما اختلفت حالهم عن حالي قليلاً، فأكثرهم -بلا شك- كان عائداً من رحلة قصيرة أمضى فيها عطلة نهاية الأسبوع في باريس، في حين أقيم أنا بعيداً في مزرعة كبيرة في الأرجنتين منذ سنة ونصف، حيث حققت نجاحاً كبيراً واستمتعت مع زوجتي بحياة حرة بسيطة في أمريكا الجنوبية.

وراقبت ذلك الشاطئ المألوف يدنو رويداً رويداً بشعور من القلق والشوق، فلقد أثار في نفسي ذكريات وذكريات! لقد نزلتُ في فرنسا قبل يومين من أجل بعض الأعمال الضرورية، وها أنا ذا في الطريق إلى لندن، والواجب أن أمكث فيها بضعة أشهر حيث الوقت يتسع أن أزور أصدقائي الأقدمين، لا سيما صاحبي الضئيل الحجم ذا الرأس البيضوي والعينين الخضراوين: هيركيول بوارو.

وعزمت أن أفاجئه بزيارتي هذه مفاجأة مقصودة، وإن كانت رسالتي الأخيرة التي بعثتها إليه من الأرجنتين تلمّح إلى رحلتي التي اتخذت القرار بشأنها على عجلٍ بعد مواجهتي لبعض المصاعب في العمل.

تُرى ماذا يصنع بوارو حين يراني؟

أيقنت أنه غير بعيد أن يكون في مقر عمله؛ لأن الوقت الذي كانت قضاياه تضطره للسفر من شمال إنكلترا إلى جنوبها قد انقضى، ولم يعد يرضى أن تأكل قضية واحدة كل وقته؛ فقد ذاع صيتُه واشتُهر وحقق كثيراً من طموحه، ثم إن الوقت يهيّئه ليصبح «مستشاراً فذاً في التحري والتحقيق» تماماً مثل الطبيب المختص الشهير في شارع هارلي!

كان بوارو يسخر دائماً من الفكرة الشائعة عن المحقق الذي يشبه الكلب: يتعقّب المجرمين ويقف عند كل أثر قدم، وكان يقول: لا يا صديقي هيستنغز، ذاك من فعل جيرود وأصحابه، أما أسلوب هيركيول بوارو فهو خاص به: التنظيم والمنهجية و«الخلايا الرمادية». إذا جلسنا نحن على مقاعدنا نستريح فسوف نستطيع أن نرى أموراً غفَل عنها آخرون، ونحن لا نقفز إلى النتيجة قفزاً كما يصنع جاب الكفء.

خشيت أن يكون بوارو مسافراً، لكني طردت هذه الوساوس المقلقة. وحين وصلت لندن أودعت متاعي في فندق وانطلقت بالسيارة مسرعاً إلى العنوان القديم.

أي ذكريات ممتعة أثارها هذا المكان في نفسي!

وانتظرت -بشيءٍ من القلق- لكي أقدم التحية لصاحبة البيت الذي كنت أسكنُه، ثم انطلقت أصعد الدرج درجتين درجتين، وطرقت باب بوارو وإذا بصوته المعهود يهتف: ادخل.

ودخلت فإذا بوارو أمامي وجهاً لوجه، وما أن رآني حتى سقطت من يده حقيبة سفر فارتطمت بالأرض لشدة المفاجأة، وصاح: هيستنغز، هيستنغز!

أقبل عليّ وعانقني عناقاً حاراً، ودار كلامنا غيرَ مترابط ولا مقبول: هتاف وأسئلة لاهفة وأجوبة مبتورة وكلام عن رحلتي ورسائل... كلّه اختلط اختلاطاً عجيباً. وسألته أخيراً حين هدأنا من ثورة الشوق قليلاً: أرى أن في غرفتي القديمة شخصاً ما، وأحب أن أقعد معك هنا مرة أخرى.

تغير وجه بوارو من هول المفاجأة وهتف: يا إلهي، أية فرصة سيئة التوقيت هذه! انظر حولك يا صديقي.

لأول مرّة لاحظت الأشياء من حولي: صندوق ضخم على الطراز القديم بجانب الجدار، وإلى جواره عدة حقائب مصفوفة كلٌّ حسب حجمها، وقد أُعِدّتْ للسفر حتماً لا شك في ذلك.

هتفت: هل أنت راحل؟

- أجل.

- إلى أين؟

- إلى أمريكا الجنوبية.

صحت بانفعال: إلى أمريكا الجنوبية؟!

- نعم، تلك مهزلة مضحكة، أليس كذلك؟ أنا مسافر إلى ريو في البرازيل، وكنت في كل يوم أقول: لن أكتب شيئاً في رسائلي حتى تكون مفاجأة لصديقي الطيّب هيستنغز حين يراني.

- ومتى ستذهب؟

نظر بوارو في ساعته ثم قال: في غضون ساعة واحدة.

- أتذكّرُ أنك كنت تقول: لن يوجد ما يقنعني بإنجاز رحلة بحرية طويلة.

ارتجف بوارو وقد أغمض عينيه وقال: لا تحدثني في ذلك! طبيبي - يا صديقي - يؤكد لي أن الإنسان لن يموت من رحلة واحدة كهذه، وأنت تعلم أنني لن أرحل مثلها مرة أخرى أبداً.

وجذبني نحو المقعد وأردف: سوف تعلم كل ما حدث. أتدري من هو أغنى رجل في العالم؟ روكفلر؟ هذا الرجل أغنى من روكفلر، إنه آبي ريلاند.

- ملك الصابون الأمريكي؟

- نعم. لقد اتصلتْ بي إحدى سكرتيراته وقالت إن عصابة تمهد لعمل احتيال ضخم يرتبط بشركة كبيرة في ريو وهو يرجوني أن أحقق المسألة في ساحتها، فرفضت وقلت: إذا كانت

الحقائق بين يديّ فسوف أقطع عندئذٍ برأي خبير مستشار. لكنه ردّ عليّ بأنه لا يستطيع تقديم الحقائق وأن عليّ أن أسعى بنفسي لكشفها حين أصل عنده، وقد كان هذا يكفي أن يُلغي الصفقة من البداية؛ لأن من الوقاحة الصرفة أن يُملى على هيركيول بوارو ما ينبغي أن يفعله. لكن الأجر الذي عرضه عليّ كان مذهلاً جداً يا صديقي. لأول مرة أشعر أن المال وحده يغريني! لقد كان الأجر ثروة طائلة، ولا تنْسَ أن عندي إغراء آخر غيره... أنت يا صديقي. لقد كنتُ عجوزاً وحيداً في عام ونصف هي مدة غيبتك، فقتلني الملل والضجر من حل المشكلات الحقيرة التي لا تنتهي، ثم إنني قد تحققت لي شهرة تامة، ففكرت في نفسي: لماذا لا آخذ ذلك الأجر الكبير وأزور صديقي القديم؟

تأثرتُ كثيراً من نظرة بوارو إليّ، وتابع كلامه: من أجل ذلك قبلت، وفي ساعة من الزمن يجب أن أغادر هذا المكان لألحق القطار الذي سيُقلّني إلى حيث السفينة. تلك إحدى عجائب الزمن، أليس كذلك؟ لكنني أعترف إليك بأنني ربما كنت ترددت لو لم يكن الأجر كبيراً جداً، حيث إنني بدأت أخيراً في إنجاز تحقيقات غاية في الخطر والإثارة. قل لي: ما الذي يُقصد - عادة - بعبارة «الأربعة الكبار»؟

- أظن أن هذا المصطلح جاء أصلاً في مؤتمر فرساي، ثم نعرف الأربعة الكبار المشهورين في عالم السينما، وهذا الاصطلاح يقال أيضاً في بعض الحفلات والأعياد.

- حسناً، لقد سمعتُ هذه العبارة يوماً ما لكن تفسيراً مما ذكرتَ لا ينطبق عليها، ويبدو أنها تعني عصابة دولية من المجرمين أو شيئاً مشابهاً.

سألته عندها دون تردد: ماذا؟

- أتخيل أن ذلك شيء قوي ضخم، تلك فكرة صغيرة لديّ فحسب. هيا، يجب أن أكمل حزم الأمتعة فالوقت يقترب.

قلت أرجوه: لا تذهب، ألغِ التذكرة وتعال معي على متن سفينتي نفسها التي سأغادر عليها بعد شهرين.

أشاح بوارو بوجهه عني بعد أن رمقني بنظرة قاسية فيها تأنيب، وقال: كأنك لم تفهمني تماماً، لقد قلتُ كلمة. ألا تفهم هيركيول بوارو؟ لا شيء ينبغي أن يعيقني الآن إلا الموت.

همستُ حزيناً: وهذا ما لا أتوقعه، وأرجو أن يُختم الأمر بشيء طارئ في اللحظة الأخيرة.

وما لبثنا كلانا بعد برهة صمت قصيرة أن سمعنا صوت حركة مريبة في الغرفة الأخرى، فصحت: ما هذا الصوت؟

ردّ بوارو سريعاً: يا إلهي! كأنك قلتَ ما تعلم: «شيء طارئ في اللحظة الأخيرة». شخص غريب في غرفة نومي!

- كيف دخل إليها؟ ليس لتلك الغرفة باب إلا الباب الذي يوصل إلى هنا.

- ما أقوى ذاكرتك يا هيستنغز! هيا إلى الاستنباط.

- إنه الشبّاك، فهو لص إذن؟ لا بد أنه تسلق إليه بصعوبة بالغة، لكن هذا أشبه بالمستحيل!

واتجهتُ صوب الباب حَذِراً أستطلع، غير أن حركة مقبض الباب من الداخل أوقفتني ذَهِلاً. فُتح الباب قليلاً قليلاً وبان رجل ذو وجه شاحب تبدو عليه علائم الإرهاق والإعياء.

حدّق إلينا ثم ترنّح وسقط، فهتف بوارو قائلاً: ماء، بسرعة.

وجلبتُ كأساً من الماء واجتهد بوارو أن يسكب في فمه شيئاً قليلاً منه، ثم حملناه إلى الأريكة، وما لبث أن فتح عينيه بعد دقائق ونظر نظرة ذاهلة لا تبوح بشيء.

سأله بوارو: ماذا تريد يا سيد؟

فتح الرجل فمه، ثم نطق بصوت غريب كلمات: السيد هير... كيول... بوارو، ١٤ شارع فاراوي؟

- نعم، نعم؛ أنا هو.

يبدو أن الرجل لم يفهم شيئاً، وأعاد عبارته الأولى باللهجة ذاتِها: السيد هيركيول بوارو... ١٤ شارع فاراوي؟

حاول بوارو أن يختبره بأسئلة مختلفة، لكن الرجل لم

يجب عن الأسئلة أحياناً، وحيناً كان يردد كلمته السابقة، فأشار بوارو عليّ بأن أتصل بالهاتف: اطلب الدكتور ردغوي لكي يحضر فوراً.

لم تمضِ بضع دقائق حتى كان الطبيب يدخل مسرعاً، فبيتُه كان في زاوية الشارع. سأل: ما هذا كلّه؟

سرد له بوارو موجزاً وبدأ الطبيب يفحص زائرنا الغريب الذي كان في غيبوبة لا يدرك ما يجري حوله، وحين انتهى قال الدكتور ريدغوي: آه، حالة تثير التساؤل.

همستُ: حمى دماغية؟

صاح الطبيب منكراً: حمى دماغية، حمى دماغية؟ لا شيء عندنا اسمه «حمى دماغية»، ذلك من كلام الروائيين فقط! لا، إن الرجل أصابته صدمة ما، ثم جاء هنا وقد سيطرت عليه فكرة ملحّة ليجد السيد بوارو القاطن في العمارة رقم ١٤ بشارع فاراوي. وقد كرر هذه العبارة ولم يدرك معناها تماماً.

قلتُ بلهفة: إذن فهو احتباس الصوت بسبب إصابة لحقت الدماغ؟

لم يُثِرْ هذا السؤال الطبيب كما فعل سؤالي الأول، لكنه لم يُجِبْ بل دفع للرجل قلماً وورقة: لنرَ ماذا سيفعل؟

لم يفعل شيئاً بضع لحظات، ثم بدأ يكتب فجأة وبصورة

محمومة، ثم كفّ وترك القلم والورقة يسقطان من يده، فالتقطهما الطبيب ونظر فيها وهزّ رأسه وهو يقول: لا شيء هنا. فقط رقم «٤» مكتوباً بصورة غير واضحة اثنتي عشرة مرة، وفي كل مرة يكون الرقم أكبر من المرة التي قبلها. لعله يريد - على ما يبدو - أن يكتب: ١٤ شارع فاراوي... إنها حالة مثيرة للاهتمام، مثيرة للاهتمام حقاً.

وفكّر الطبيب برهة ثم قال: لكن هل - يا تُرى - تسمحان بأن يبقى هنا إلى ما بعد الظهر؟ أنا مضطر الآن أن أذهب إلى المستشفى، وسوف أعود بعد الظهر لأصنع ما ينبغي بشأنه. هذه قضية تستحق الاهتمام وأود كشف سرّها.

وحدّثته بأمر سفر بوارو ورغبتي بمرافقته إلى ساوث هامبتون، فقال: حسناً، دعا الرجل هنا. إنه لن يسبب أذى، فهو يعاني من إعياء ثقيل وربما ينام ثماني ساعات متواصلة. سأكلم جارتكم الطيبة السيدة فنيفيس وأسألها أن تعتني به.

وخرج الدكتور ريدغوي مسرعاً بخفته المعهودة وأَتمّ بوارو حزم متاعه وعينُه تلحظ الساعة. قال: الوقت يمضي سريعاً. تعال هنا يا هيستنغز، لن أدعك تقول إنني تركتك بلا عمل. إنها مشكلة غريبة حقاً؛ هذا الرجل الغريب: من هو؟ ومن أين جاء؟ آه! ودِدْتُ لو أضحّي بسنتين من عمري من أجل أن تتأخر السفينة يوماً واحداً، إلى الغد بدلاً من اليوم. ثمة شيء يثير السؤال ويدعو إلى الاهتمام لكن الوقت ثمين. الوقت... ربما

تمضي أيام، بل أشهر، قبل أن يصبح الرجل قادراً على تسمية حاجته!

- سأبذل جهدي يا بوارو، سوف أكون بديلاً كُفئاً عنك.

- نعـ... نعم.

دُهشت لردّه الذي بعث في نفسي شكوكاً، وأخذت الورقة وقلت مرحاً: لو كنت كاتباً لحبكتُ قصة من هذه الورقة وكلمتك التي قلتَها سابقاً وأسميتُها «لغز الأربعة الكبار».

كنت أضرب على الأرقام المكتوبة وأنا أتكلم، ثم أصابتني رعشة حين نهض مريضنا فجأة من غيبوبته وجلس وقال بصوت واضح: لي شانغ يِنْ.

في حين أوحى شكله أنه نائم صحا من نومه فجأة!

طلب بوارو مني أن أمتنع عن الكلام معه، واستمر الرجل يتكلم بصوت واضح جهوري وكأنه يلقي درساً أو يقرأ بياناً مكتوباً:

لي شانغ يِنْ، زعيمُ العقول الأربعة الكبار، إنه القوة الضابطة والآمرة، ولذلك فقد سمّيتُه رقم «١»، أما رقم «٢» فنادراً ما يُذكَر باسمه، ولذلك فإن رمزه "$" علامة الدولار، ورمزه أيضاً شريطان ونجمة مما يوحي بأنه أمريكي، وهو يمثّل قوة الثروة. أما رقم «٣» فالظاهر أنها امرأة، وهي فرنسية، وربما

تكون واحدة من نصف العالم الجديد، ربما، لا أجزم بهذا. أما رقم «٤»...

بُحَّ صوت الرجل وتلعثم لسانه وكفّ عن الحديث، فاقترب منه بوارو يحثّه على الكلام بلهفة: نعم، رقم «٤»؟

كانت عيناه مثبتتين على وجه الرجل الذي سيطر عليه الرعب، وقال الرجل يلهث: المدمّر!

ثم تشنّج فزِعاً وسقط مرة أخرى وغاب عن الوعي، فهمس بوارو: يا إلهي! لقد كنت على صواب إذن، كنت على صواب.

حاولت أن أتكلّم: تظن...؟

- هيا احمله معي إلى السرير؛ فلا أملك أن أضيع دقيقة واحدة وإلا فاتني القطار. آه! ليتني لم أُقُلْ كلمتي، فلكان يمكنني - حينئذٍ - إلغاء السفر بضمير مرتاح، لكن الوعد قد تحقّق، هيا يا هيستنغز.

أودعنا هذا الزائر الغريب برعاية السيدة بيرسون وانطلقنا مسرعَين في السيارة فأدركنا القطار. وبينما كان القطار يشقّ طريقه إلى ساوث هامبتون أخذ بوارو ينظر عبر النافذة وكأنّه في حلم، يصمت حيناً وينطق حيناً آخر، إلاّ أنه - على كل حال - لم يسمع كلمة واحدة من حديثي له. وكان حيناً يصحو فجأة فيُلقي عليّ

كومة نصائحه وإرشاداته ويرجوني أن أداوم مراسلته وأن أستمر بالإبراق إليه بكل ما يجِدّ من أنباء.

وقطع القطار مسافة طويلة نحو ساوث هامبتون دون توقف على الطريق، وبعد أن اجتاز مقاطعة ووكِنْغ حلّ بيننا صمت طويل حتى توقف القطار فجأة عند إشارة ضوئية، فاهتاج بوارو فجأة وصرخ: يا إلهي! هذا رائع، هذا رائع! لقد كنت أبله، لكن الآن فهمتُ. العناية الإلهية هي التي أوقفت القطار بلا شك، اقفز يا هيستنغز، قلت لك اقفز!

وبسرعة خاطفة فتح باب العربة وقفز من القطار على السكة الأخرى وصرخ بحزم: هات الحقائب واقفز، هيا بسرعة.

لم أملك إلا طاعة بوارو بلا تفكير، فقفزت. وما أن وطئت قدماي الرصيف حتى كان القطار ينطلق كالبرق، وقلت له بنبرة ساخرة: والآن يا بوارو، هلاّ أفهمتني كل هذه الحركات التي لم أفهم منها أيّ شيء؟

- يا صديقي، لقد رأيتُ الضوء.

فقلت مستنكراً: هذا واضح جداً عندي.

- يجب أن يكون واضحاً، لكني أخشى أن الأمر ليس كما قلتَ. على كل حال فلو حملت حقيبتين من هذه فسوف أتدبّر أنا الباقية.

* * *

الفصل الثاني
ضيفنا من المصحة العقلية

مشينا على الأقدام قدراً قليلاً، ثم ركبنا سيارة إلى البيت لأن المكان الذي توقف القطار عنده لم يكن بعيداً عن موقف السيارات. وفي غضون نصف ساعة كنا في طريق عودتنا السريعة المثيرة المدهشة إلى لندن.

تلطف بوارو بي وهو يجتهد أن يخفف من حيرتي، وقال: ألا ترى يا صديقي؟ لم أرَ من قبلُ ما تبيّن لي الآن. إنها مؤامرة ذكية أُحكمت خيوطها من أجل دفعي لأخرج من طريقهم!

- ماذا؟

- أجل، بخطة ذكية متقنة اختاروا المكان المناسب والأسلوب بعناية فائقة وفطنة لم تُسبَق. إنهم يخافونني.

- من هم؟

- عصابة الشياطين الأربعة الذين صنعوا اتحاداً شريراً

يعمل في غفلة من القانون: رجل من الصين وثري أمريكي وامرأة فرنسية ورجل رابع... ادْعُ الله أن نصل البيت سريعاً يا هيستنغز.

- هل تظن أن زائرنا في خطر؟

- بل أنا جازم بذلك.

حيّتنا السيدة بيرسون حين وصلنا وهي تنظر إلينا بدهشة واستغراب، وسألناها عن الضيف دون اكتراث بدهشتها فأجابت بأن حاله حسنة وصحته تدعو إلى الطمأنينة.

صعدنا إلى البيت وعلينا بعض علائم الراحة، وعبر بوارو الغرفة الأولى متجهاً إلى الأخرى، ثم ناداني بصوت متهدج غريب ينطق بالفزع: هيستنغز... إنه ميت!

ركضت إليه وقلبي يدق بعنف من هول المفاجأة. كان الرجل ما زال مستلقياً كما تركناه، ويبدو أنه قد مات منذ بعض الوقت.

ثم خرجت مسرعاً في طلب الطبيب، وكنت أعلم أن الدكتور ريدغوي ليس في عيادته فدعوت طبيباً غيره قريباً حضر معي في الحال.

قال: إنه ميت تماماً، هل هو صديق لك؟

- نعم، لكن ما سبب وفاته أيها الطبيب؟

- يصعب تحديده. ربما يكون نوبة مرضية، كما تبدو عليه بعض علائم الاختناق. هل عندكم خط غاز ممتد إلى هنا؟

- كلا، بل ضوء كهربائي ليس غير.

- والشبّاكان مفتوحان تماماً أيضاً؟ كأنه مات منذ ساعتين، أنتم ستخبرون الشرطة، أليس كذلك؟

وخرج الطبيب وقام بوارو بالاتصال اللازم، ثم اتصل بصديقنا القديم المفتش جاب وسأله الحضور.

لم يَمْضِ وقت طويل حتى حضرت السيدة بيرسون وعيناها جاحظتان من الدهشة والعجب، وقالت: بالباب رجل من المصحة العقلية، هل أسمح له بالدخول؟

أشار لها بالموافقة، فدخل رجل ضخم الجسم في زي خاص، وقال بمرح: صباح الخير يا سادة. لقد علمت أن عصفوراً من عندنا طار إلى هنا، لقد فرّ ليلة أمس.

بوارو: لقد كان هنا.

- وهرب مرة أخرى؟

كان سؤاله باهتمام. قال بوارو: بل مات!

ظهرت علائم الطمأنينة على الرجل وقال بتكلّف: هذا خير لنا جميعاً.

- وهل كان خطيراً؟

- إن كنت تقصد أنه نزّاع للقتل فإنه لم يكن كذلك، بل مسالم، وهو ذكي جداً لكنه مليء بالأسرار، والظاهر أن الجمعية الصينية السرية هي التي أسكتته.

شعرت بالرعدة تسري في جسدي، ثم قلت: كم مضى عليه وهو على هذه الحال؟

- قُرابة السنتين.

قال بوارو بهدوء: ألم يخطر ببال أحد أنه ربما يكون عاقلاً؟

سَخِر الرجل وقال: لو كان عاقلاً ما كان في ضيافتنا، إنهم جميعاً يزعمون أنهم عقلاء!

ثم دخل الرجل فتعرّف إلى الجثة وقال: الآن عليّ أن أذهب لأتخذ الخطوات اللازمة، لن ندع الجثة عندكم طويلاً، أرجو أن تساعدوا الشرطة في التحقيق، شكراً لك يا سيدي.

وانسلّ الرجل من عندنا.

وصل جاب بعد بضع دقائق، وكان واثقاً من نفسه وأنيقاً على عادته. قال: أنا مستعد للعمل يا سيد بوارو، كنت أظنك ذاهباً إلى الشواطئ المرجانية.

- هل تعرف هذا الرجل من قبل؟

سادت الدهشة والحيرة نظرات جاب الفاحصة إلى الجثة، ثم قال بنبرة فيها خوف وارتباك: كأني أعرفه... دعني أنظر إليه، إن لي ذاكرة أعتزّ بها... آه، إنه مايْرلنغ! مايْرلنغ رجل الاستخبارات السرية الذي ذهب إلى روسيا قبل خمس سنوات وانقطعت أخباره... كنا نظنه قُتِل!

وهمّ جاب أن يخرج فقال له بوارو: كل شيء يبدو معقولاً، لكنه مات ميتة عجباً.

أخذ الهواء وقد هبّ عبر النافذة المفتوحة يداعب الستائر في حين جعل بوارو ينظر إلى الجثة بعبوس واضح وهو يقول: هل فتحت النافذة؟

- لا، لم أفعل. لقد كانت مغلقة.

- كانت مغلقة لكنها الآن مفتوحة، ما معنى ذلك؟

- شخص ما دخل من النافذة.

- هذا جائز، لكنه ليس ما يشغل بالي، إنما أثار انتباهي أن النافذتين مفتوحتان لا واحدة!

واندفع نحو الغرفة الأخرى ثم صاح كمنْ وجد شيئاً: نافذة غرفة الجلوس مفتوحة أيضاً، وقد كنا تركناها موصدة!

مال فوق الجثة وأخذ يتفحص فم القتيل بدقة، ثم قرر واثقاً: لقد وُضع في فمه شيء ما ليكتم صوته ثم سُمّ.

شعرت بالصدمة وأوجست خوفاً في جسدي، وقلت: سنعرف الحقيقة بعد التشريح.

- لن نعرف شيئاً لأنه مات من استنشاق حمض البروسيك الحادّ سريع التطاير بعد أن لُصق بأنفه تماماً، ثم هرب القاتل بعد أن فتح الشبابيك كلّها. الأطباء سيسجلونها ميتة طبيعية ولن يجدوا أثراً يعرفونه، وسوف يُسدَل الستار على رجل الاستخبارات السرية الذي مضت على اختفائه خمس سنين.

ثم اهتزّ بوارو فجأة وهو ينظر إلى ساعة الحائط: توقفتْ عند الرابعة! لقد عبث بها شخص عبثاً مقصوداً.

- ترى لماذا فعلوا ذلك؟ من أجل التضليل؟

- لا يا صديقي. أعْمِلْ فكرك، شَغِّلْ خلاياك الرمادية... مايْرلنغ كان ينتظر الموت المحتوم لكن كانت في صدره أشياء خطيرة، لقد استطاع أن يترك علامة واضحة قبل أن يلفظ أنفاسه... رقم «٤»، «المدمّر»... آه، لقد جاءتني فكرة.

اندفع سريعاً نحو الغرفة الأخرى وأمسك بالهاتف وطلب رقماً من الاستعلامات، وأدار الرقم ثم سأل: هل هذا هو مستشفى الأمراض العقلية؟ لقد علمتُ أن مريضاً هرب من المستشفى اليوم...

ثم وضع السماعة قائلاً: هل سمعت يا هيستنغز؟ لم يهرب أحد!

- وذلك الرجل الذي أتى... هل تظن...؟

- المدمر، إنه رقم «٤».

فقدتُ قدرتي على التركيز وشعرت بأني لا أستطيع الكلام، ثم حاولت لملمة نظراتي المشدوهة وحاولت النظر إلى بوارو وخرق الصّمت الذي سببته المفاجآت المذهلة فنطقت: سوف نعرفه إذا رأيناه في أي مكان آخر، ما زلت أذكر ملامحه جيداً... لقد كان رجلاً ذا شخصية حازمة.

سخر بوارو بي: حقاً يا عزيزي؟ بل كان قوي الجسم ذا وجه أحمر وشارب غليظ وصوت خشن. في المرة القادمة لن تجد فيه صفة من هذه الصفات، سوف يُغيّر لون شعره ويتخذ طقْم أسنان صناعياً رائعاً وستكون له نظرات مختلفة. كشف الهويّة ليس سهلاً يا صاحبي، في المرة القادمة...

- هل تظن أن بعد هذه المرة مرة قادمة؟

كان وجه بوارو يفيض حزماً وجداً وهدوءاً، ونطقت ملامحه بالعزم والإصرار، لكن كان فيه ذهول وشرود، ثم تحدث بنبرة قوية: إنها مبارزة حتى الموت يا صاحبي؛ نحن في جانب والأربعة الكبار في الجانب الآخر. لقد ربحوا الجولة الأولى، ربما، لكنهم ما استطاعوا أن يُبعدوني من طريقهم.

ثم أضاف بتمهل: عليهم أن يحسبوا لهيركيول بوارو ألف حساب.

* * *

الفصل الثالث

مزيد من المعلومات عن لي شانغ ين

عبثاً حاولت إخراج بوارو عن صمته خلال الأيام القليلة التي أعقبتْ حادثة القتل القذرة وزيارة قيّم المصحة العقلية المشؤومة تلك، فقد ظل بوارو على مقعده الكبير يفكر تفكيراً شاقاً وأحبط كل محاولاتي لحمله على الحديث.

وكنت- طوال هذه المدة- أنتظر رجعة المجرم الشقي، ورفضت أن أغادر البيت ولو لحظة واحدة ظناً مني أنه ربما يعود ليأخذ الجثمان، لا سيما وأنه لا يشك بتاتاً في أننا قد عرفناه.

وسخر مني بوارو ثانية وقال: فلْتنتظر يا صديقي ما شئت حتى تضع الملح على ذيل الطير الصغير، أما أنا فلا أضيع وقتي مثلك.

حاولت أن أجادله: حسناً يا بوارو، لماذا غامر إذن فأتى في المرة الأولى دون سبب ولم يكسب منا شيئاً؟ أنا إذن أستطيع أن ألتمس سبباً لزيارته الثانية، ربما كي يمحو الدليل ضده.

سخر مني مرة أخرى بطريقته التهكمية قائلاً: أنت لا تنظر بعين رقم «٤» يا هيستنغز. ليس ثمة دليل ضده، الجثة عندنا لكن لا دليل على أن صاحبها قد قُتل قتلاً لأن حمض البروسيك حين يُستنشق لا يبقى له أثر، ثم هل عندك شاهد على القاتل؟ بل لن تجد من يشهد أنه رأى رجلاً دخل البيت في غيابنا! إن المدمّر يتقن حِرفته جيداً وبمهارة تامة، ونستطيع أن نقول إن زيارته كانت للاستطلاع... أراد أولاً أن يتأكد من موت مايْرلنغ، ثم أن يرى هيركيول بوارو ويخاطب الخصم الذي يجب أن يحسب له - وحده - ألف حساب... أن يخاطبه عِياناً، نعم.

قلت في نفسي: أي غرور أصاب بوارو! وجادلته قائلاً: وماذا عن التحقيق؟ أظنك تستطيع أن توضح الصورة تماماً وتخبر الشرطة أوصاف رقم «٤» كاملة، أليس كذلك؟

- لن نحقق فائدة ولن نعرف شيئاً، ولا يُهمّني ذكر أوصاف رقم «٤». لن نستطيع أن نغير قرار هيئة المحلفين الحكماء الذين سيسجلون بأن موت الرجل عارض وربما نفسح لمجرمنا الذكي أن يقول بفخر إنه استطاع هزيمة بوارو في الجولة الأولى.

* * *

وهكذا صدقت نُبوءات بوارو؛ فقد كان ذا بصيرة بلا شك! لم نرَ قيّم المصحة العقلية مرة أخرى، ولم يحقق التحقيق شيئاً ولا أثار اهتمام الناس، وإن كنت قدّمت إفادتي في القضية، وهكذا ذهبتْ طيّ النسيان.

بعد نحو أسبوع شعرتُ بالسرور حين تفضّل عليّ بوارو يسألني إن كنت أرغب في مرافقته في زيارة اعتزم القيام بها، وسألته عن مكانها لكنه لم يُجبني، فهكذا هو بوارو: غامض كتوم لا يبدي سراً حتى النهاية.

شعرت أنه مخطئ إذ يسعى إلى الحل وحده من غير مُعين، وجادلتُه لكن بلا فائدة. ورحنا ننتقل من حافلةٍ إلى أخرى تِباعاً، ثم أقلّنا القطار إلى إحدى ضواحي لندن الكئيبة، وما زالت الهواجس تنتابني وذهني يشرد من أمرٍ إلى أمر ومن فكرة إلى أختها.

ثم إذا بوارو ينطق: نحن ذاهبان - يا هيستنغز - لنرى ذلك الرجل الوحيد في إنكلترا الذي يعرف كثيراً من دقائق وأسرار الحياة في الصين.

- عجباً، ومن هو؟

- رجل لم تسمع به من قبل. إنه موظّف مدني مسرَّح ذو ذكاء حاد، له بيت مليء بالتحف الصينية التي يضجر منها أصدقاؤه وزوّاره، وقد أكد لي العارفون أنني لا أجد سواه من أجل ما أبحث عنه. إنه السيد جون إنغليز.

وفي بضع لحظات كنا على عتبة «بيت الأكاليل»، بيت السيد إنغليز، وسألتُ نفسي عن سر هذه التسمية المبهَمة لأنني لم أرَ شجرة إكليل قطّ.

وقف عند المدخل فتى صيني بوجهٍ ذي ملامح جامدة، وسمح لنا بالدخول ثم قادنا إلى غرفة المجلس حيث كان سيّده. كان رجلاً قصيراً ماكر الشكل ذا عينين غائرتين تَشِيان بشخصيته.

ونهض يرحّب بنا وهو يمسك رسالة مفتوحة، قال: هلاّ جلستما؟ لقد أخبرني هاسلي في رسالته أنك تبحث عن بعض المعلومات.

- نعم يا سيدي، لقد جئتُ ألتمس بعض المعلومات عن شخص يُدعى لي شانغ ين.

- وكيف سمعت بهذا الرجل؟

- أنت تعرفه إذن؟

- قابلته مرة واحدة وأعرف عنه القليل، ليس القدر المطلوب... لكني أشعر بالمفاجأة لأن رجلاً آخر في إنكلترا قد سمع بشانغ ين. إنه رجل عظيم الشأن، من طبقة الماندارين... أنت تعلم، لكن نقطة الحسم ليست هذه، بل إن عندي سبباً مُقنعاً يدل على أنه الرجل الذي يقف وراء كل ذلك.

- وراء ماذا؟

- وراء كل شيء: القلاقل والمصاعب العمالية في أنحاء العالم كلها والثورات التي تتأجج هنا وهناك... الذين يعرفون

الحقيقة ويستطيعون قولها قلّة، وهم يقولون إن مِن وراء الأحداث قوة خفية تسعى لتحطيم الإنسانية والحضارة. صدِّقني إن لينين وتروتسكي في روسيا ما هما سوى دميتين تتحركان بفعل قوة خفية مسيطِرة ودماغ مستتر. ليس عندي برهان لكنني مقتنع تماماً بأن هذا الدماغ هو لي شانغ ين.

- آه، ما هذا؟ هذا خيال! كيف يستطيع رجل صيني أن يدير الأحداث في روسيا؟

قلتُ هذه الكلمة معارضاً فنظر إليّ بوارو شزراً وعبس وزجرني قائلاً: هذا عندك يا هيستنغز، فهذا هو مبلغ فهمك! دع عنك ما لا يعنيك، أما أنا فإني على قناعة بما يقول الرجل. أكمل يا سيدي، أرجوك.

- لا أستطيع أن أجزم بحقيقة ما يسعى إليه هذا الرجل بدقة. لعله مرض العقول العظيمة الذي يصيب العظماء منذ عصر الإسكندر الأكبر حتى عصر نابليون بونابرت والعصر الحديث... التّوْق الشديد إلى السلطة والرغبة في التفوّق والعلو بالقوة. أما في هذا القرن، قرن الثورات والقلقلة، فإن رجلاً مثل لي شانغ ين يملك وسائل أخرى. عندي الدليل على أن لديه أموالاً طائلة يشتري بها الضمائر ويرشوها، ودلائل أخرى تشير إلى امتلاكه قوةً علميةً مذهلةً لا تتهيأ لبعض الدول في هذا العالم!

سأل بوارو الذي كان يصغي بانتباه شديد ويقظة تامة: وفي الصين، هل يملك الحركة والأثر أيضاً؟

هز إنغليز رأسه قائلاً: أجل، ربما لا أستطيع أن أقدم دليلاً تعتدّ به المحكمة لكن لديّ علماً يقيناً أن كل أولئك الرجال الكبار الذين يعظّمهم الناس هم - في الحقيقة - دميً ترقص إذا سَحبَتْ خيوطَها يدٌ خفية تحركها؛ وهي يد لي شانغ ين: الدماغ المهيمن على الشرق كله. نحن لا نفهم الشرق ولن نفهمه، لكنني أفهم أن لي شانغ ين هو روحه المحركة، رغم أنه لا يظهر للناس ولا يستطيعون رؤيته، فهو لا يخرج من قصره في بكين وخيوطه ممتدة في كل مكان. هذا هو جوهر المسألة، ثم تجري الأحداث بعيداً جداً.

اجاثا كريستي & كتاب رواية

قال بوارو: أليس في العالم من يعارضه؟

اعتدل إنغليز في جلسته ثم مال إلى بوارو ودنا منه وتكلم بصوت خافت وكأنه يفشي سرّاً: أربعة رجال حاولوا معارضته في السنين الأربع الأخيرة، رجال أذكياء مفكّرون وعلى خلُق متين وأمانة ومسؤولية، لكنهم كلما عارضه واحد منهم سكت إلى الأبد!

سألتُه: ثم ماذا يكون؟

- لا ترى منهم أحداً! لقد كتب أحدهم مقالاً يذكر فيه اسم شانغ ين مقروناً بحوادث الشغب في بكين، فوُجِدَ بعد يومين مطعوناً في الشارع ولم يُقبَض على قاتله. جريمة الثلاثة الآخرين كانت هي نفسها: مقالة أو خطبة أو حديث، وفي غضون أسبوع ترى أحدهم فارق الحياة... أحدهم مات مسموماً، والثاني مات

بوباءٍ ما، والثالث وُجد مقتولاً في سريره دون أي أثر لمقتله. لكن الطبيب الذي فحص الجثة حدّثني أنه رأى الجثة وقد احترقت بصورةٍ عجيبة وكأن موجة عالية من الكهرباء سرتْ فيها!

قال بوارو: ربما لا ترى علامة على العلاقة بين مصرعه ولي شانغ ين لكن لا بد من إشارات...

- «علامة»؟ نعم، نعم، بالتأكيد؛ لقد جاءني مرة شاب صيني مختص بالكيمياء متوقّد الذكاء كان يعمل لحساب شانغ ين، وأراد أن يحدثني - بالتلميح - عن تجاربه التي كان يجريها في القصر على الحمّالين، وقال وهو على حافة الانهيار العصبي إنه عمل مقرف يزدري الحياة الإنسانية! ثم أصابه رعب كاد يقتله، كانت حاله تثير الشفقة في الأكباد التي لا تعرف الرحمة. وحملته إلى السرير في الغرفة العلوية ليحدثني في الليلة التالية، لكن فعلتي تلك كانت عملاً أحمق غبياً.

- وكيف وصلوا إليه؟

- هذا ما لم أعرفه. صحوتُ تلك الليلة والنارُ تأكل منزلي، وكنت محظوظاً بالفرار أنا وزوجتي، ثم تبيّن من التحقيق أن ناراً عظيمة اندلعت في الطابق الأعلى جعلت عظام صديقي الشاب رماداً!

تخيّلت إنغليز وهو يتكلم بجدّ وحماسة كأنه على حصان من حجر وبيده سيف من خشب وقد غرق في لجة العاطفة.

وحين نظر إليّ أدرك أنه مندفع بحماسته فضحك يعتذر: أجل، ليس عندي دليل، وأحسب أنك - مثل غيرك - تقول إن كلامي أوهام مجردة وأحلام.

قال بوارو: كلا، بل إنني أصدقك يا سيدي، لأن لي شانغ ين رجل في غاية الأهمية في نظري.

- ما كنت أتوقع أن أجد أحداً بين الأحياء في إنكلترا قد سمع باسمه أبداً، وأجد نفسي مدفوعاً لأن أسألك: كيف عرفت عنه لو سمحت؟

- لقد لجأ إلى منزلي رجل مصاب بصدمة عصبية حادة، وكانت حالته النفسية والبدنية سيئة، لكنه استطاع أن يخبرنا شيئاً مثيراً حول منظمة غريبة تُدعى: «الأربعة الكبار» يرأسها لي شانغ ين وهو عقلها المدبر، والثاني رجل أمريكي، والثالث امرأة فرنسية، والرابع لقبُه «المدمّر». لكن الرجل الذي أخبرنا بهذا كله مات، فهلاّ أخبرتَني عن منظمة الأربعة الكبار يا سيدي؟ هل سمعت بهذا الاسم من قبل؟

- سمعت بها أخيراً، لكن ليس بصفة ارتباطها بلي شانغ ين. في الواقع أنا لا أعرف عن هذه المنظمة الكثير... آه، تذكرت.

نهض قائماً واتجه سريعاً إلى خزانة عتيقة في زاوية الغرفة، ورجع وهو يحمل رسالة مفتوحة. قال: هذه رسالة من ملاّح

عجوز قابلتُه مرة في شانغهاي، رجل اشتعل رأسه شيباً ويمضي معظم وقته ثملاً، فحملت الرسالة على أنها هذيان رجل سكران ليس غير.

قرأها بصوت عالٍ:

سيدي،

ربما لا تذكرني لكنك أسديت لي في شانغهاي معروفاً ذات مرة، وأنا الآن أطلب منك معروفاً آخر. إنني في أشدّ الحاجة إلى قدر من المال حتى أستطيع الخروج من هنا، أنا مختبئ تماماً لكنهم قد يصلون إليّ في أي يوم، أقصد الأربعة الكبار.

إنها مسألة هامة خطيرة، حياة أو ممات... عندي مال كثير، لكن يصعب عليّ الآن السعي إليه مخافة أن يعرفوا مخبئي. أرسل لي ورقتين من فئة المئة جنيه وسوف أردها إليك، أقسم يا سيدي.

جوناثان والي

قال إنغليز: أُرسلت هذه الرسالة من منزل «غرانيت بنغالو»، في هوباتون بدارتْمور. لقد خشيتُ أنها حيلة سخيفة لسلب مئتي جنيه مني صعُب عليّ جمعها، فإذا كانت هذه الرسالة تنفعك شيئاً فلترسل له مئتي جنيه.

- شكراً لك يا سيدي، سوف أنطلق الآن إلى هوباتون.

- وهل تمانع في أن أرافقك؟

- سأكون مسروراً بصحبتك. هيا، يجب أن نذهب من فورنا، فلن نصل دارتمور قبل ظلمة الليل.

وفي غضون دقيقتين كان جون إنغليز مستعداً، وفي الحال كنا في القطار الذي ينطلق من حدود بادنغتون نحو الريف الغربي.

هوباتون قرية صغيرة تقع على أرض سِبخة في غور منخفض، وتبعد تسعة أميال عن مورِتون هامستيد ركوباً في السيارة. وكانت الساعة حين وصلنا الثامنة مساء، لكن ضوء النهار كان ما يزال مشهوداً فوق المكان.

اتجهت السيارة عبر الشارع الضيق في القرية، ثم توقفنا عند عجوز ينتظر على قارعة الطريق فسألناه عن البيت المذكور، فقال الرجل العجوز متأملاً: غرانيت بنغالو... هل تريدون غرانيت بنغالو؟

ثم هزّ رأسه كأنما ذكر شيئاً، وأشار نحو كوخ رمادي حقير ناءٍ في آخر الطريق قائلاً: هناك البنغالو، هل تريدون رؤية المفتش؟

قال بوارو بدهشة: أي مفتش؟ ماذا حدث؟

- إذن فلم تسمعوا عن جريمة القتل؟ لقد كانت مروعة... حماماً من الدم كما قالوا.

همس بوارو: يجب أن أقابل هذا المفتش.

مضت خمس دقائق قبل أن نجد المفتش الذي لم يكن يرغب بالحديث معنا وبدا متردداً كتوماً، حتى إذا ذكرنا له اسم جاب مفتش سكوتلانديارد المشهور تغير أسلوبه وصار لطيفاً: نعم يا سيدي، لقد قُتل الرجل صباح اليوم... جريمة في منتهى البشاعة، والحادث غامض من أوله؛ فعندما قدمت إلى مكان الحادث إثر مكالمة هاتفية وأنا في مورتون إذا برجل عجوز في السبعين من عمره (مولع بكأسه كما قالوا) ممدوداً على الأرض في غرفة المعيشة وفي أعلى رأسه أثر كدمة عنيفة وقد ذُبح من الأذن إلى الأذن، والدم ملء المكان وتماثيل صينية اختفت من البيت... ربما في ذلك إشارة إلى سطو لكنْ ينقض هذا الظن أمور؛ فالبيت فيه خادمان: بتسي آندروز، وهي امرأة من هوباتون، ورجل فظّ يُدعى روبرت غرانت.

وسكت المفتش قليلاً ثم مضى يقول: آندروز خرجت لتثرثر مع جاراتها في حين ذهب غرانت كعادته في كل صباح إلى المزرعة لكي يجلب الحليب، وعندما رجع دخل من باب البيت الخلفي فرأى الأبواب مفتوحة، ثم وضع الحليب ومضى يقرأ الصحيفة في غرفته ويدخّن، ولم يكن يعلم شيئاً بزعمه. أما بتسي فدخلت غرفة المعيشة فصرخت صرخة مريعة توقظ الأموات... هكذا قال غرانت.

شخص ما دخل البيت وهما خارجه وقتل العجوز

المسكين! لا بد أن يكون لصاً وقحاً قدم من القرية ثم زحف في إحدى الساحات... هذا ظني، لكنّ البيوت - كما ترى - محيطة بكل أنحاء «غرانيت بنغالو» وكل من عبرها كان سيُرى حتماً، ولا سيما الغريب.

ثم سكت المفتش بحركة درامية فقال بوارو: فهمت، أكمل.

- حسناً يا سيدي، هذه مسألة تثير الشك. لقد شدّ انتباهي اختفاء التماثيل الثمينة، إذ لا يدرك قيمتَها متسكّع جاهل، وفي كل الأحوال فارتكاب الجريمة في وضح النهار مغامرة مجنونة، ألم يخشَ المجرم أن يستغيث العجوز بالصراخ؟

قال إنغليز: أظن - أيها المفتش - أن الكدمة التي ظهرت في رأسه كانت قبل الوفاة؟

- هذا صحيح تماماً يا سيدي، ضربة شرسة على الرأس ثم أتى على حنجرته فقطعها من الوريد إلى الوريد. لكن عجباً، كيف جاء؟ وكيف ذهب؟ أظنّ أن أحداً لم يأتِ من الخارج؛ فقد نظرت في المكان نظرة فاحص. كانت ليلة أمس ليلة ماطرة، ورأيت أثر أقدام راحت وجاءت من المطبخ، وفحصت الأثر في غرفة المعيشة: أثر قدم بتسي وقدم والي في حذاء من القماش وقدم رجل آخر.

لقد مشى ذاك الرجل فوق بقع الدم، وتعقبت هذه الآثار

الدموية فرأيت واحدة على عتبة باب روبرت غرانت، ورأيت لطخة من الدم باهتة في الغرفة، ثم أمسكت حذاء غرانت وطابقته مع الأثر فرأيته منطبقاً فعرفت أن القاتل كان فعلاً من الداخل. لقد اعتُقل غرانت من أجل التحقيق وكان يتجهز للسفر، فهل تدري ماذا وجدت في حقيبته المحزومة؟ لقد وجدت فيها التماثيل الثمينة وتذكرة. كان روبرت غرانت هو أبراهام بيغز الذي أُدين بجريمة سابقة واقتحام منزل قبل خمس سنين!

ونظر المفتش إلينا نظرة زهو وفخر قائلاً: فماذا ترون الآن أيها السادة؟

قال بوارو: إن حل القضية بهذه البساطة يثير الدهشة... إن بيغز أو غرانت هذا أحمق، ويبدو أنه غير متعلم، أليس كذلك؟

- بلى، إنه كذلك: فظّ غليظ القلب وأُميّ لا يعرف ما معنى أثر القدم.

- من الواضح أنه لا يدرك خيال رجل التحري... حسناً، أهنئك أيها المفتش، لكننا نودّ لو نرى مسرح الجريمة.

- سوف نذهب معاً، وأريدكم أن تطّلعوا على آثار الأقدام.

- هذا ما أريد أن أراه بعيني، نعم، نعم.

وانطلقنا خلف المفتش الذي كان يعدو أمامنا بخفة ونشاط، ثم جذبت بوارو إليّ قليلاً لأهمس في أذنه من غير أن يسمعني المفتش: ماذا تتوقع يا بوارو؟ هل في الأمر شيء آخر؟

- نعم يا صديقي. لقد أخبرَنا السيد والي صراحة أن الأربعة الكبار يتعقبونه، فإن كان غرانت قد فعلها فلماذا؟ من أجل تمثال صغير؟ أم هو جندي للأربعة؟ وهذا ما أراه أنا. هل كان غرانت يفهم قيمة هذه التماثيل؟ ألم يكن بوسعه أن يسرقها ويهرب من غير أن يُقدم على فعله المروّع هذا؟ إنني أخشى أن صاحبنا المفتش لم يشغل خلاياه الرمادية، بل قاس آثار الأقدام وغفل عن التفكير العميق.

* * *

الفصل الرابع
لحم الضأن مهم

أخرج المفتش مفتاحاً من جيبه وفتح باب غرانيت بنغالو، ومسحنا أقدامنا تماماً قبل الدخول.

أقبلت امرأة من بيت الجيران وكلّمت المفتش، فهز رأسه ثم قال لنا: عاين المكان يا سيد بوارو وابحث فيه كما تشاء، سأعود خلال عشر دقائق. هذا هو حذاء غرانت، لقد حملتُه حتى تقارنه بدمغة الأقدام.

دخلنا غرفة المعيشة وسمعت وقع أقدام المفتش وهو يبتعد خارجاً، واتجه إنغليز نحو بعض التحف الصينية يتفحصها وقد أثارت اهتمامه، وبدا وكأنه نسي بوارو.

وراقبتُ ما يفعله بوارو بصمت. كانت الأرض مغطاة بمشمّع أخضر قاتم تظهر عليه آثار الأقدام بجلاء، وكان في الغرفة باب يؤدي إلى مطبخ صغير وباب آخر يؤدي إلى الحمام، وباب أيضاً إلى غرفة النوم التي تخص روبرت غرانت.

فحص بوارو البلاط ثم قال كأنما يخاطب نفسه: هنا كانت الجثة ممدودة، فبقع الدم تحدّد المكان. آثار الحذاء القماشي وآثار أقدام أخرى... هذا شيء عجيب! آثار أقدام تجيء وتروح من المطبخ، أياً كان القاتل فقد جاء حتماً من هذا الطريق. هيستنغز، أعطني الحذاء.

قارنه بعناية بآثار الأرض الواضحة ثم قال: نعم، هما متطابقان. روبرت غرانت دخل من هنا فقتل العجوز وعاد إلى المطبخ ومشى فوق الدم، هل ترى آثاراً من المطبخ؟ لا شيء في المطبخ هاماً، هل ذهب إلى غرفته؟ لا، عاد مرة أخرى إلى مسرح الجريمة، هل كان ذلك من أجل التماثيل أم أنه نسي شيئاً قد يُدينه؟

قلت: ربما قتل العجوز في المرة الثانية التي دخل فيها.

- كلا، إنك لم تلاحظ ذلك الأثر الملطخ بالدم وفوقه أثر آخر. إنني أعجب... لماذا عاد؟ هل عاد من أجل التماثيل؟ كأن فكرة خطرت له من بعد... كل شيء يبدو غريباً.

- حسناً، إنه يفضح نفسه بيأس كبير.

- ليس كذلك، بل هو يجعل خلاياي الرمادية في حيرة!

- ماذا عن المرأة العجوز؟ كانت في البيت وحدها بعد أن خرج غرانت للحليب، فلعلها قتلته ثم خرجت، أو أن قدميها لم تتركا أثراً إذ لم تكن في الخارج.

- بحثت في هذه النظرية ورفضتها. بتسي آندروز امرأة محلية، إنها بنت القرية فلا يُعقل أن تكون على صلة بالأربعة الكبار، ثم إن والي كان رجلاً قوياً، ناهيك عن أن هذا العمل من فعل رجل لا امرأة.

- أظن أن الأربعة الكبار لم يتبعوا حتى الآن وسيلة تختفي في السقف ثم تنزل بصورة آليّة لتقطع حنجرة الرجل العجوز ثم تصعد إلى أعلى مرة أخرى ولا تترك أثراً!

- أعلم أن لك خيالاً واسعاً يا هيستنغز، لكني أتوسل إليك أن تبقيه ضمن الحدود المعقولة.

أغلقت فمي خجلاً واستمر بوارو في التجوال في المكان؛ يقتحم الغرف، ويعبث بالخزائن، ويقلّب الأشياء، وقسمات وجهه تنطق بالحيرة وعدم الرضا. وفجأة أصدر صرخة مثيرة كصرخة كلب بولندي، فانطلقت إليه مذهولاً فوجدته في غرفة حفظ الأطعمة في مشهد درامي ويده تمسك فخذاً من لحم الضأن وهو يلوح بها!

صرخت بعطف: عزيزي بوارو، ماذا دهاك؟

- أرجوك انظر إلى قطعة اللحم هذه... انظر إليها عن قرب.

نظرت إليها بإمعان وجعلت أقترب منها لكني لم أرَ فيها

شيئاً. قلت: إنها قطعة من اللحم كغيرها، كل ما فيها مثل سواها.

قلت له ذلك وأنا في غاية الحيرة من هذا الموقف، فسألني باهتمام: ولكن ألا ترى؟

كانت يده تعبث بالثلج المتراكم عليها. لقد اتهمني بوارو بسعة الخيال لكن خيالي عجز عن تفسير سبب اهتياجه. هل كان الثلج مخلوطاً بسم قاتل؟ هذا هو الاحتمال الذي توصلت إليه بعد جهد، لكني لم أجرؤ على البوح بما في صدري فقلت بلطف: هذا لحم مجمد مستورَد من نيوزيلندا.

انفجر بوارو بضحكة غريبة تنمّ عن السخرية والتهكم ثم قال: كم هو رائع صديقي هيستنغز... واسع الاطلاع يكاد يعرف كل شيء!

قالها ووضع لحم الضأن في طبقه مرة أخرى وخرج، فأطلّ من النافذة ثم قال: ها هو المفتش، لقد رأيت كل ما أريده.

ثم ضرب بقبضة يده على الطاولة وهو شارد الذهن وسألني: ما اليوم يا صديقي؟

- الإثنين.

- الإثنين... نعم، في هذا اليوم ارتُكبت جريمة قتل مروعة.

وحدّق إلى ميزان الحرارة ثم قال: الجو معتدل، هذا يوم إنكليزي صيفي.

كان إنغليز منكبّاً على قطع الفخار الصيني المختلفة يتفحصها وكأن الأمر لا يعنيه، فخاطبه بوارو قائلاً: كأنك غير مهتم بهذا التحقيق يا سيدي؟

تبسم إنغليز: إنه ليس من شأني. أنا خبير في أمور أخرى، وحسبي أن أقف بعيداً في الخلف. لقد تعلمت في الشرق أن أصبر.

دخل المفتش مسرعاً وهو يعتذر، فنزلنا إلى شارع القرية معاً، وقال بوارو: إنني أقدر فيك لطف المعاملة ودماثة الخلق، ولكنّ لي مطلباً عندك.

- ربما تريد رؤية الجثة يا سيدي؟

- لا، ليس هذا، بل أرغب في مقابلة روبرت غرانت.

- إذن هيا معي إلى مورتون لتراه يا سيدي.

- حسناً، لكني أريد لقاءه وحده.

- لا أستطيع أن أعد بذلك يا سيدي.

- تأكد أنك إذا اتصلت بإدارة سكوتلانديارد فسوف تجد الجواب بالموافقة.

- قطعاً، لقد عرفناك يا سيدي وعرفنا خدماتك الجليلة، لكن هذا مخالف للقانون.

- لكنه ضروري... ضروري جداً. أتدري لماذا؟ لأن غرانت ليس هو القاتل.

تجهم المفتش وقد أذهله الأمر وهتف قائلاً: ماذا؟! فمَن إذن؟

- أظن أن القاتل كان رجلاً شاباً وصل إلى بيت غرانيت بنغالو يجرّ عربته، ثم تركها في الساحة ودخل وفعل فعلته ثم خرج إلى عربته وقفل عائداً، وكان حاسر الرأس وثيابه ملطخة بالدماء قليلاً.

- لكن كل القرية سوف تراه!

- لن يحصل ذلك في ساعة ما.

- ربما في الظلام، لكن الجريمة تمّت في وضح النهار.

اكتفى بوارو بابتسامة خفيفة.

- والحصان والعربة يا سيدي... لا أدري ما هذا الذي تقول؛ فلم تمرّ على الطريق عربات ذات عجلات ونحن لم نرَ أي أثر لذلك.

- ربما لم تستطع عيون الناس رؤيتها لكن عين العقل تستطيع، نعم.

لم يُبدِ المفتش قناعة بهذا القول ومسح جبهته بيده ونظر إليّ وهو يبتسم ابتسامة عريضة. كنت محتاراً مثله، ولكني كنت على ثقة تامة بقدرة بوارو فلم أستطع الحديث.

واستمرّ النقاش في المسألة حتى وصلنا إلى مورتون. وذهبنا لرؤية غرانت ومعنا شرطي، وهناك تكلم بوارو في الأمر صراحة قائلاً: أنا أعرف أنك بريء من هذه الجريمة يا غرانت، فاسرُدْ عليّ الحكاية كلّها.

كان السجين رجلاً متوسط الطول ذا ملامح تدعو إلى النفور ولا تبعث الطمأنينة، وبدا كأنه رجل يألف السجون. انتحب وقال: أقسم برب الملائكة أنني لم أفعل ذلك أبداً... شخص ما وضع هذه التماثيل في حقيبتي، لقد كانت مكيدة. والذي حدث أنني ذهبت مباشرة إلى غرفتي عندما دخلتُ إلى البيت، وما كنت أعلم شيئاً حتى صرخت بيتسي... ساعدني يا رب فإني لم أفعلها.

نهض بوارو وكأنه يريد المغادرة، وقال: إن لم تستطع أن تقول الحقيقة كاملة فإن هذه هي النهاية.

- ولكن...

- لقد ذهبتَ إلى الغرفة حقاً، لكنك كنت تعلم أن سيدك كان ميتاً وكنت تستعد للفرار حين عرفَتْ بيتسي الطيبة بأمر الجريمة المرعبة.

حدق الرجل إلى وجه بوارو بذهول تام، فقال بوارو: ماذا أصابك؟ سأقول لك كلمة أخيرة: صدق أن هذه هي فرصتك الأخيرة إن كنت صريحاً.

- سأعترف بالحقيقة. لقد كان الأمر كما قلت أنت تماماً: دخلت وذهبت مباشرة إلى السيد فوجدته ميتاً على الأرض والدماء حوله، ثم خطر ببالي أنهم سيكتشفون ماضيّ ويقولون حتماً بأنها من فعلي قبل أن يعرفوا الجاني.

- وماذا عن التماثيل؟

تردد الرجل: أنت ترى...

- لقد أخذتها بدافع الغريزة، أليس كذلك؟ سمعتَ سيدك يقول إنها قيّمة وأردت أن تأخذ أكثر من حقك. إنني أفهم ذلك... والآن أجبني عن هذا السؤال: هل سرقتها في المرة الثانية التي دخلت فيها الغرفة؟

- لم أذهب مرة ثانية، مرة واحدة فقط.

- هل أنت متأكد؟

- نعم، متأكد بلا ريب يا سيدي.

- حسناً، متى خرجت من السجن؟

- قبل شهرين.

- كيف تدبرت هذا العمل؟

- من إحدى جمعيات مساعدة السجناء، فقد قابلني أحد رجالها حين خرجت.

- ماذا كان شكله؟

- ليس قسيساً لكنه بدا كذلك؛ كان ذا قلنسوة سوداء ناعمة وطريقته في المشي مبالغة، له سن مكسور، ويلبس نظارة، وكان يسمي نفسه سوندرز. قال لي: "آمل أن تكون نادماً وقد وجدت لك عملاً مناسباً" وذهبت إلى والي العجوز بتوصية منه.

- شكراً، الآن فهمت كل شيء، وعليك أن تصبر قليلاً.

وخطا خطوة ثم التفت قائلاً بشكل مباغت: إن سوندرز **كان قد أعطاك حذاء**، أليس كذلك؟

ارتعد غرانت من المفاجأة وهتف: يا إلهي! بلى، لقد أعطاني حذاء. ولكن كيف عرفت؟

- تلك هي مهنتي؛ كشف الخفايا.

وبعد حديث قصير مع المفتش ذهبنا ثلاثتنا إلى مطعم وايت هارت، وكانت جلسة عامرة حيث قمنا بالنقاش حول البيض واللحم وسائر الطيبات، وعندها سأل إنغليز بوارو بلطف: ألا من توضيح في النهاية؟

- بلى، القضية واضحة تماماً لكنْ يصعبُ إثباتها: «الأربعة الكبار» هم الذين قتلوا والي وليس غرانت. في القضية رجل ذكي استطاع أن يدبر عملاً لغرانت لكي يجعله كبش فداء ويصبح

الأمر سهلاً بسبب سجلّ غرانت الإجرامي، وكان لدى هذا الرجل حذاءان متطابقان أعطى غرانت واحداً منهما واستبقى الآخر لنفسه. والذي حدث أن غرانت خرج من البيت كعادته وخرجت بيتسي تثرثر في القرية، وربما كانت تفعل ذلك دائماً، ثم جاء صاحبنا وفي رجله الحذاء المطابق فدخل المطبخ وعبرَه إلى غرفة المعيشة حيث أسقط الرجل العجوز بضربة قاسية ثم عمد إلى حنجرته فقطعها، ثم عاد إلى المطبخ وخلع الحذاء ولبس حذاء آخر وصعد إلى عربته آمناً ومضى.

نظر إنغليز إلى بوارو نظرة تساؤل وقال: لا يزال عندنا أسئلة تطالب بالأجوبة... لماذا لم يره أحد؟

- نعم، هنا يكمن ذكاء رقم «٤». كل الناس رأوه، تأكد من ذلك، لكنهم أقسموا أنهم لم يروا أحداً لأنه كان يقود عربة الجزار!

صاح إنغليز وقد استحسن هذا الرأي: هذا الشرير اللعين.

- نعم، ذاك هو رقم «٤»... كم هو ذكي!

همست: ذكي مثل هيركيول بوارو؟

رمقني بنظرة قاسية وقال: تبدو هذه منك كلمات ساخرة. ينبغي أن تنتهي يا هيستنغز، ألم أنقذ رجلاً؟ إن هذا يكفي ليوم واحد!

* * *

الفصل الخامس

اختفاء عالِم

عندما برّأ المحلفون روبرت غرانت من جريمة قتل جوناثان والي كان ذلك مخالفاً لظنون المفتش ميدوز الذي لم يكن قانعاً ببراءته، فهو صاحب سجل إجرامي والتماثيل وُجدت في حقيبته، وحذاؤه جاء مطابقاً للآثار التي خلّفتها قدما الجاني... كل هذا - في الحقيقة - كان يدعو إلى قلق المفتش الكبير.

لكن بوارو استطاع إقناع المحلفين بعد أن فرض بقوةٍ شهادته ضد رغبة المفتش، فقد قدّم شاهدَين رأيا عربة الجزار وهي تسير نحو بيت البنغالو صباحَ ذاك الإثنين الذي تمّت فيه الجريمة، ولدى استجواب الجزّار اعترف بأن عربته تذهب هناك يومَي الأربعاء والجمعة فقط.

واعترفت إحدى نساء القرية بأنها رأت الرجل الجزار وهو يغادر البنغالو، وهي لم تستطع أن تقدّم وصفاً مفيداً له، لكنها

ما زالت تذكر شيئاً قد علق في ذهنها: أنه رجل أوسط الطول حليق اللحية أشبه بالجزار تماماً.

قال لي بوارو بعد المحاكمة: تماماً كما أخبرتك يا هيستنغز، إن هذا الرجل فنان لا يخفي شخصيته بلحية مزيّفة ونظارة سوداء فحسب، فهذا أقل دور يتبعه الرجل المحترف، بل يستطيع أن يعيش متقمصاً دوره بإتقان وعناية... على أية حال فإننا نتقدم يوماً بعد يوم.

وحاولت أن أجادل بوارو لكنه لم يعترف بأننا لم نكسب شيئاً البتة، وقال: بل نحن نتقدم يوماً فيوماً، وكلما احتككنا بهذا الرجل تعلمنا شيئاً جديداً من أسلوبه وتفكيره، وهو لا يعرف عنا ولا عن خطتنا شيئاً.

قلت أعارضه: بصراحة لا يبدو أن عندك خطة، كل ما في الأمر أنك تجلس تنتظره أن يفعل هو الشيء.

ابتسم بوارو ابتسامة فيها سخرية ثم قال: يا صديقي، لن تتغير يا هيستنغز...

لكنه سمع في تلك اللحظة طرقاً على الباب فقال: ربما تكون هي فرصتك، لعله صاحبنا المنتظر!

ضحك بوارو من خيبتي عندما دخل المفتش جاب ومعه رجل، قال المفتش: مساء الخير يا سيد بوارو، اسمح

لي أن أعرّفك على الكابتن كِنت، رجل الاستخبارات السرية الأمريكية.

كان الكابتن كِنت رجلاً طويلاً نحيفاً، له وجه ذو ملامح جامدة كأنه نُحِت من الخشب. وقال وهو يصافحنا بقوة: تسرني رؤيتكما أيها السيدان.

أضاف بوارو قليلاً من الحطب إلى الموقد المشتعل وجلب كراسيّ أخرى أكثر راحة، فيما ذهبت أنا لأعدّ القهوة لتقديمها للضيوف.

اجاثا كريستي & كتاب رواية

قال الكابتن بعد أن رشف رشفة عميقة من القهوة: القانون عندكم ميزتُه الثبات، فهو لم يتغير منذ فترة طويلة.

قال جاب: والآن إلى العمل أيها السادة... لقد طلب مني السيد بوارو أن أخبره -في أي وقت- إذا ذُكر اسم «الأربعة الكبار» في عملي الرسمي. ولم أهتم كثيراً بهذا الأمر في البداية، لكنني ذكرت ذلك حين جاءني الكابتن كِنت وقصّ عليّ قصة غامضة تثير التساؤل، فقررت عندها أن نأتي سريعاً لرؤية هيركيول بوارو.

نظر بوارو إلى الكابتن الأمريكي بإمعان عندما بدأ يسرد القصة: لعلك تتذكر -يا سيد بوارو- أن عدداً من المدمّرات وقوارب الطوربيد غرقت في البحر إثر اندفاعها الغريب ناحية الساحل الصخري على شواطئ أمريكا، وكان ذلك عقب

الزلزال الياباني تماماً. كان التأويل العامّ لتلك الكارثة يومئذٍ أنها كانت نتيجةً لموجةٍ بحرية شديدة أعقبت ذلك الزلزال الرهيب، ولكن قبل وقت قصير اعتُقلت شِرذمة من المحتالين والقراصنة وضُبطت في حوزتهم بعض الوثائق التي أدت إلى فتح ملف القضية مرة أخرى، وأخذت المسألة بُعداً آخر أظهر أن الوثائق تخص منظمةً خفية تدعى «الأربعة الكبار».

لقد احتوت تلك الوثائق وصفاً غير وافٍ لبعض المنشآت اللاسلكية التي تعمل من أجل تركيز قوة مغنطيسية هائلة على بُعد كبير، وهي قادرة على تركيز إشارة لاسلكية ذات تردد عالٍ فوق منطقة ما. لقد بدت هذه المزاعم حول إنجازٍ كهذا أقرب إلى الخيال، لكنني حولتها إلى القيادة من أجل الاطّلاع والدراسة، ثم تولى الأمرَ عالمٌ أمريكي كبير لدراسته وكشف حقيقته. وجديرٌ بالذكر أن أحد علمائكم الإنكليز كان قد ألقى بحثاً في هذا الأمر أمام الجمعية العلمية البريطانية، ولم يقدّر زملاؤه خطر هذا الأمر حق التقدير وكانوا جميعاً على رأي واحد: أن هذا خيال حتماً. لكن هذا العالم ظل عُرضةً للهجوم والملاحقة، لا سيما حين أعلن أنه يوشك أن ينجح.

قال بوارو باهتمام بالغ: حسناً، أكمل يا كابتن.

- وطُلب مني أن أزور إنكلترا من أجل مقابلة هذا الرجل العالم (واسمُه هاليدي) صاحب الخبرة الغزيرة في هذه المسألة من أجل أن أعلم كيف يمكنه أن ينفّذ نظريته.

سألته بلهفة: وهل تم لك ذلك؟

- كلا، لم أستطِعْ رؤية العالِم هاليدي... وأظنني لن أراه كما يقول الناس!

قال جاب معلّقاً: حقيقة المسألة أن هاليدي قد اختفى في ظرف غامض.

- متى؟

- قبل شهرين.

- وهل أُبلِغ الشرطة؟

- حتماً. لقد أقبلت زوجته علينا وهي في اضطراب وقلق شديد، وحاولنا أن نبذل كل ما في طاقتنا لكني كنت أعلم أن ذلك عديم الجدوى.

- عديم الجدوى؟ لماذا؟

طرفت عينا جاب قبل أن يتكلم: عديم الجدوى إذا اختفى رجل هكذا بهذه الطريقة.

- أية طريقة؟

- إنها باريس!

- هاليدي اختفى في باريس إذن؟

- نعم؛ ذهب إليها في مهمة علمية... هكذا أخبر زوجته. لكننا نفهم معنى اختفاء رجل في باريس، فإما أن يكون اعترضه

قاطع طريق فانتهى أمره، أو أنه اختفى بإرادته هو، وهذا يبدو أرجح: سئم الحياة في وطنه؛ لأن هاليدي كان قد تنازع مع زوجته قبل سفره، وهذا وضّح الحكاية.

قال بوارو وعلى وجهه علامة الاستنكار: هذا عجيب!

كان الرجل الأمريكي ينظر إلى بوارو بشيء من الفضول، ثم تكلّف في لهجته وهو يطرح سؤاله: هل لك أن تخبرنا من هم «الأربعة الكبار» يا سيدي؟

- الأربعة الكبار منظمة دولية زعيمها صيني يدعي رقم «١»، أما رقم «٢» فهو رجل أمريكي، ورقم «٣» امرأة فرنسية، أما رقم «٤» (أو المدمّر) فهو رجل إنكليزي.

صفر كِنت عجباً وقال: امرأة فرنسية وهاليدي اختفى في فرنسا! ربما كان بينهما علاقة، ما اسمها؟

- لا أدري، فأنا لا أعرف عنها شيئاً.

- لكنها نظرة جديرة بالملاحظة، أليس كذلك؟

هز بوارو رأسه موافقاً في حين كانت يدُه تمتد إلى الطاولة الصغيرة لتصفّ فناجين القهوة... تلك هي عادته: يحب النظام والتنسيق. وقال كِنت: هل الأربعة الكبار من عمل الألمان؟ وهل لهذه المنظمة علاقة بغرق الزوارق؟

- الأربعة الكبار يعملون من أنفسهم ومن أجل صالحهم فقط أيها الكابتن، وهدفهم هو الهيمنة على العالم.

انفجر الأمريكي بضحكة صاخبة لكنه قطعها حين لمحت عيناه وجه بوارو صارماً جادّاً، وقال بوارو بتهكم وسخرية: أنت تضحك يا سيد. أنت لا تفكر، أنت لا تستعمل خلايا دماغك الرمادية!

قال جاب: والآن بعدما سمعتَ قصة الكابتن، هل أستطيع خدمتك بشيء؟

- نعم، أريد عنوان السيدة هاليدي وتعريفاً موجزاً لها إن سمحت.

* * *

في صباح اليوم التالي كنا نحث الخطى إلى شيتْ ويندلودج قرب قرية شوبهام، حيث كان في استقبالنا السيدة هاليدي فوراً. كانت امرأة طويلة شقراء حادّة المزاج والحركة، معها طفلتها الصغيرة الجميلة في الخامسة من عمرها. وسمّى بوارو نفسه وأوضح سبب الزيارة.

- آه، سيد بوارو؟ كم يسعدني مقدمك! أشكرك وأشكرك، لقد سمعت عنك كثيراً، فأنت تختلف تماماً عن رجال سكوتلانديارد هؤلاء الذين لا يكادون يفقهون الحقيقة، والشرطة الفرنسية وهم أسوأ... كلهم مقتنعون أن زوجي هرب

مع امرأة غيري. إنه ظن كاذب سخيف، لقد كان همّ زوجي هو عمله المخبري، ونصف شجارنا كان من أجل ذلك، فهو يحفل بعمله ولا يحفل بي!

قال بوارو بهدوء: هم كذلك الرجال الإنكليز: انشغالٌ في العمل أو الرياضة... إنهم يحملون الأمور بجِدّ كبير! والآن يا سيدتي: هلاّ سردتِ عليّ القصة بشيء من التفصيل والدقة بقدر استطاعتك وظروف الاختفاء إذا أمكنك ذلك؟

- نعم؛ ذهب زوجي إلى باريس يوم الخميس العشرين من تموز (يوليو)، وكان يريد مقابلة رجال كثر لهم صلة بعمله وزيارتهم، ومنهم السيدة أوليفر.

هزّ بوارو رأسه حين سمع اسم الكيماوية الفرنسية الشهيرة التي فاقت شهرتُها العلمية شهرةَ مدام كوري، حتى لقد قلّدتها الحكومة الفرنسية وساماً رفيعاً وأصبحت أبرز علماء فرنسا المعروفين.

- وصل باريس في المساء وقصد من فوره فندق كاستيج ليون، وفي صبيحة اليوم التالي كان على موعد مع الخبير بورجونوا الذي وفى بوعده. كان سلوكه عادياً وبهيجاً ودار بينهما حديث جاد مهم، واتفقا على أن يذهب زوجي إلى مختبر الخبير في اليوم التالي لكي يرى تجاربه.

أكل الغداء في مقهى رويال وحده، ثم ذهب يتمشى في

بوا، ثم زار السيدة أوليفر في بيتها في باسي، وكان هناك طبيعياً تماماً. ثم غادر منزلها في الساعة السادسة ولم يعرف أحد أين أكل عشاءه. ربما في أحد المطاعم وحده.

ثم وصل الفندق في نحو الساعة الحادية عشرة فذهب إلى غرفته بعد أن سأل إن كانت قد وصلته أي رسائل، ثم في صباح اليوم التالي خرج من الفندق ماشياً ولم يُشاهد بعدها!

- متى غادر الفندق؟ في الساعة المعتادة لكي يلتزم بموعده في مختبر الخبير بورجونوا؟

- لا نعرف على وجه الدقة، فلم يره أحد وهو يغادر الفندق، لكنّ طعام الإفطار لم يقدَّم له، إذن فقد خرج مبكراً.

- ألا يجوز أنه خرج مرة أخرى في الليلة التي عاد فيها؟

- لا أظن، فقد ظهر من سريره أنه نام عليه، ناهيك عن أن موظف الفندق لا بد أن يلمح أي زبون يخرج في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

- تلك ملاحظة مجردة يا سيدتي. لعلنا نعتمد الرأي القائل بأنه خرج مبكراً، وفي هذا طمأنينة من جهة واحدة: أنه لم يقع ضحية قطّاع الطرق في باريس. لكن هل ترك خلفه أمتعته كلها؟

بدت السيدة هاليدي وكأنها كرهت الجواب، لكنها قالت أخيراً: لا بد أنه قد أخذ معه حقيبة الأوراق الصغيرة.

قال بوارو وهو شارد في برهة تفكير عميق: عجباً، أين كان في ذلك المساء؟ لو أجيب عن هذا السؤال لكشفنا أشياء كثيرة. مَن الذين قابلهم ذاك المساء؟ هنا يكمن الغموض، ليس عليّ أن أقبل رأي الشرطة فهم - غالباً - يبحثون عن المرأة، لكنّ شيئاً ربما وقع في تلك الليلة فغيّر زوجُك برنامجه. قولي لي: حين سأل عن الرسائل حال عودته إلى الفندق ألم يستلم رسالة؟

- واحدة فقط، تلك التي كتبتُها له يومَ سافر من إنكلترا.

ظلّ بوارو في تفكيره لحظات ثم نهض فجأة وانتصب قائلاً: حسناً يا سيدتي، السرّ في باريس، ولكي نجد الحل لا بد من السفر إلى باريس... سوف أذهب أنا إلى هناك.

- لقد انقضى زمن طويل منذ ذلك يا سيد بوارو.

- نعم، لكن ينبغي أن نبحث هناك.

وقام إلى الباب مغادِراً، لكنه التفت بعدما أمسك مقبض الباب قائلاً: ألا تذكرين - يا سيدتي - أن زوجك ذكر كلمة «الأربعة الكبار»؟

- الأربعة الكبار... الأربعة الكبار؟ نعم، لا أذكر.

* * *

الفصل السادس
امرأة على الدرج

في صباح اليوم التالي بدأنا رحلتنا باتجاه باريس، وقال لي بوارو بكآبة: الأربعة الكبار يدفعونني إلى العمل دفعاً، أصعد وأنزل في كل مكان مثل صديقنا القديم صائد الثعالب!

كان يقصد جيرود، أكثر رجال الأمن شهرة في فرنسا والذي قابله أكثر من مرة، فقلت: ربما تقابله في باريس.

تجهم وجه بوارو ثم قال: أرجو الله مخلصاً ألا أنعم برؤيته، فأنا لم أكن على وفاق مع ذلك الرجل وهو لا يحبني.

ولكن مهمتك شاقة -يا بوارو- إذ تبحث عن رجل إنكليزي مجهول مضى على اختفائه نحو شهرين.

- بالتأكيد يا صديقي؛ إنها مهمة صعبة جداً، لكنك لا تعرف جيداً أن بوارو رجل يعشق المغامرة ويهوى الصعاب ويستمتع بحلها.

- هل تظن أن الأربعة الكبار هم الذين اختطفوه؟

هزّ بوارو رأسه أنْ نعم.

كان ضرورياً أن نزور الأماكن ونتأكد من المعلومات والتحقيقات القديمة، لكننا لم نستطع الزيادة على ما أخبرتنا به السيدة هاليدي. بوارو التقى الخبير بورجونوا مطوّلاً من أجل معرفة أي شيء عن برنامج هاليدي لقضاء ذاك المساء المشؤوم لكن بلا جدوى.

المحطة الثانية كانت السيدة أوليفر.

كان المكان مثيراً، وشعرت بإحساس غريب يسيطر عليّ ونحن نصعد عتبات قصرها الجميل في باسي. وقد أصابني الذهول كون امرأة تصل هذا الحد البعيد في العلوم البحتة، إذ كنت أحسب أن هذا الميدان حكر على الرجال وأن هذا الإنجاز العلمي لا تتقنه إلا عقول الرجال.

فتح الباب خادم فتي صغير لم يتجاوز السابعة عشرة، فذكرتُ صورة مساعد الكاهن من طريقته وحركته التي تشبه الطقوس الدينية الكهنوتية. وكانت هذه المقابلة قد تمت بعد جهد كبير لتثبيت موعد مع السيدة أوليفر التي تكاد لا تستقبل أحداً؛ فهي في شغل دائم بحثاً وتجارب طوال ساعات اليوم.

دخلنا القصر وسِرْنا نحو صالة صغيرة، وفي الحال جاءت سيدة القصة تستقبلنا. كانت طويلة فارعة الطول، وعليها

رداء أبيض أضفى عليها بهاء ومهابة، وكانت تعتمر بقلنسوة ممرضة.

وكان وجهها يميل إلى الطول وفيه شحوب مميز، وعيناها سوداوين بنظرات ثاقبة تشتعل نزقاً وحدّة. وبدت عندئذٍ كأنها امرأة نهضت من التاريخ لا امرأة فرنسية عصرية، وكان أحد خديها ذا أثر من جرح أو حرق فذكرت ذاك الحادث الذي أدى إلى مقتل زوجها واثنين من العاملين معه إثر انفجار في مختبره قبل ثلاثة أعوام، وقد أُصيبت هي نفسها بحروق بالغة، ومنذ ذلك الحين اعتزلت الناس وانصرفت إلى أبحاثها العلمية بطاقة عجيبة وعزيمة ملتهبة.

كان استقبالها مؤدباً وفاتراً بعض الفتور، ثم قالت بوقار: لقد قابلني رجال الشرطة مراراً أيها السيدان، ويبدو أنني لن أستطيع أن أقدّم لكما المزيد من العون لأنني ليس عندي غير هذا.

- سيدة أوليفر، ربما أسألك أسئلة مختلفة تماماً، ولكي لا نضيع الوقت دعيني أسأل هذا السؤال: فيمَ كنت تتحدثين أنت والسيد هاليدي؟

فاجأها سؤاله، ثم أجابت: في عملي قطعاً وفي عمله كذلك.

- هل خاض في نظرياته التي كانت ضمن بحثه الذي قدمه أمام الجمعية العلمية البريطانية أخيراً؟

- بالطبع، هذا كان أساس حديثنا.

- كانت أفكاره خيالاً، أليس كذلك؟

- كثير من الناس يظنون ذلك، لكني لا أوافقهم.

- إذن فأنت تعدّينها قابلة للتطبيق.

- حتماً، حتماً، وبصورة نموذجية، وهذا هو محور أبحاثي التي أعكف عليها لأنجزها مع اختلاف في الطريقة. ذات مرة كنت أعالج أشعة غاما بمادة الراديوم سي، وهي عنصر غازي ناتج عن الراديوم، فرأيت نتيجة عجيبة أثارت اهتمامي، وهي - في حقيقتها - تتعلق بالطبيعة الفعلية للقوة التي نسميها القوة المغنطيسية، لكنّ الوقت لم يَحِنْ لإعلان أبحاثي هذه على الملأ. وقد أفدت من السيد هاليدي ووجهات نظره التي أثارت اهتمامي كثيراً.

هزّ بوارو رأسه موافقاً، ثم سألها سؤالاً أثار دهشتي: سيدة أوليفر، أين تباحثتما؟ هنا في هذا المكان؟

- كلا يا سيد بوارو، بل في المختبر.

- هل يمكن أن أفحص المكان؟

- بالتأكيد، تفضّل.

وسارت أمامنا إلى الباب الذي دخلَتْ منه، حيث عبرنا ممراً قصيراً يؤدي إلى المختبر الكبير الذي كان يمتلئ بالأدوات المخبرية والأكواب الزجاجية والأجهزة التي لا أستطيع حفظ أسمائها، وكان فيه شخصان منشغلان سمّتهما السيدة أوليفر لنا: الآنسة كلودي إحدى مساعداتي القديرات.

انحنت لنا، وكانت فتاة طويلة شابة ذات وجه حادّ.

- والسيد هنري، صديق قديم ثقة.

كان الشاب قصيراً أسمر، وانحنى لنا باحترام.

كان بوارو يستطلع المكان بعينيه فرأى بابين آخرين للمختبر يوصل أحدهما إلى حديقة القصر الخلفية والآخر إلى غرفة أبحاث أخرى صغيرة. وأعرب بوارو عن شكره للسيدة أوليفر وتساءل وهو يعود إلى الصالون: سيدتي، هل كنتما وحدكما أثناء اللقاء؟

- نعم، مساعداي كانا في غرفة الأبحاث الصغيرة.

- وهل أمكنهما الاستماع إلى حديثكما هما أو غيرهما؟

- لا أظن، هذا حتماً غير محتمَل؛ فالأبواب كلها كانت مغلقة.

- ربما يختبئ شخص ما في هذا المكان.

- توجد في الزاوية خزانة كبيرة، لكنها فكرة سخيفة.

- حسناً، بقي لديّ سؤال: هل ذكر السيد هاليدي أي ملاحظة عن برنامجه لذلك المساء؟

- أبداً، لم يذكر شيئاً من هذا.

قام بوارو شاكراً يودعها بلطف واحترام، واعتذر إن كان قد سبب لها أي إزعاج. وكنا نهم بالخروج من الصالة عندما دخلت من باب القصر امرأة صعدت بسرعة نحو الدرج دون أن تبدي بنا اهتماماً، وقد دلّ ثوبها الأسود على أنها أرملة فرنسية.

وأثارت طريقة دخول هذه المرأة إلى المنزل اهتمام بوارو فأبدى استغرابه قائلاً: امرأة غير طبيعية، إنها تثير التساؤل والعجب.

- السيدة أوليفر؟ نعم، إنها...

- لا يا هيستغز؛ لا أعني السيدة أوليفر، فهي امرأة نادرة ذات شخصية فذّة ربما يفتقد العالم أمثالها، لكني أعني هذه المرأة التي رأيناها على الدرج.

قلت بدهشة: لكنني لم أستطع رؤية وجهها ولا أظنك كنت قادراً على أن تستبين ملامحها، فهي لم تلتفتْ إلينا.

قال بوارو بهدوء: وهذا هو السبب الذي يجعلني أقول ذلك. امرأة تدخل البيت وكأنه بيتها، معها مفتاح الباب،

وتركض بسرعة نحو أعلى الدرج دون أن تنتبه لزائرَين غريبَين في البيت... هذا أمر غير طبيعي يدعو إلى الإثارة والدهشة، أمر غريب حقاً!

امتدّت يد بوارو نحوي بقوّة وجذبني بسرعة إلى الخلف في وقت مناسب تماماً، فقد انهارت شجرة سرو ضخمة كانت تنتصب في صف الأشجار الذي يحاذي الممر الذي كنا نسير فيه وكادت تهوي على رأسَينا.

جمدنا في المكان وكلّنا رعب ودهشة، وكان وجه بوارو شاحباً ثم قال بانزعاج: كانت قريبة منا جداً... ذلك عمل أحمق طائش، لم أكن أتوقعه يوماً لكن عيني كانت بالمرصاد. لقد كاد بوارو أن يختفي من الوجود فتحلّ عندئذٍ في العالم كارثة مفجعة! وأنت أيضاً يا صديقي، لكن موتك لن يكون مُصاباً وطنياً على كل حال.

فقلت له ببرود: شكراً على هذا التقدير، لكن دعنا من هذه الثرثرة الجوفاء. ماذا تريد أن نفعل الآن؟

- الآن؟ نعم، نعم، يجب أن نفكر لندرب خلايانا الرمادية. هل كان السيد هاليدي في باريس حقاً؟ نعم؛ لأن الخبير بورجونوا الذي يعرفه رآه وكلّمه صباح الجمعة، وكانت آخر مرة شوهد فيها الساعة الحادية عشرة مساء الجمعة، لكن هل شوهد حينئذٍ حقاً؟ ومن ذا رآه؟

- حمّال الفندق.

- حمّال المناوبة الليلية الذي لم يرَ هاليدي من قبل؟ لقد رأى رجلاً يشبه هاليدي تماماً، لكنني أثق بقدرة رقم «٤» على تقمص هذا الدور... يسأل عن الرسائل، ويصعد إلى أعلى وهو يحمل حقيبة أوراق صغيرة، ثم ينسلّ في صباح اليوم التالي باكراً. **لم يشاهد أحدٌ هاليدي مساء يوم الجمعة لأنه كان قد وقع في أيدي أعدائه!**

هل كان الرجل الذي التقتْه السيدة أوليفر هو هاليدي؟ نعم، رغم أنها لم تكن تعرفه من قبل، لأنه يصعب على الذي ينتحل شخصيته أن يخدعها في موضوعها العلمي المتخصص. لقد جاء هنا وقابلها ثم غادر، فماذا بعد ذلك؟

أمسك بوارو بذراعي وعاد أدراجه إلى الخلف قائلاً: والآن تخيل أن هذا اليوم هو الذي أعقب يوم اختفائه. دعنا نتبع أثر الأقدام، أنت تحب آثار الأقدام، أليس كذلك؟ انظر هنا، هذه قدم رجل تتجه نحو اليمين تتبعه قدم صغيرة مسرعة، قدم امرأة شابة تلبس حجاب الأرملة تلحق به وتناديه: "سيدي، السيدة أوليفر تريد أن تتحدث معك" يتوقف ويدور، فتقوده المرأة الشابة، لكن إلى أين؟

لم تكن مصادفة أن المكان الذي لحقت به فيه هو الذي يتفرع منه ممر آخر، وقالت له: هذه الطريق أقصر يا سيدي.

عن اليمين حديقة بيت السيدة أوليفر، وعن اليسار حديقة منزل الجيران، ومن تلك الحديقة سقطت الشجرة. بابا الحديقتين يفتحان على الممر... لا بد أن الكمين كان هناك: رجال يخرجون ويغلبونه ثم يحملونه إلى الفيلا الغربية.

صعد بوارو درجات القصر واتجه إلى الباب حيث قرع الجرس، فصرخت مذهولاً: أتريد مقابلة السيدة أوليفر مرة أخرى؟

تبسّمَ بوارو بسمة استخفاف قائلاً: كلا يا هيستنغز، بل مقابلة المرأة التي رأيناها على الدرج.

- من تُراها تكون؟ قريبة السيدة أوليفر؟

- الغالب أنها سكرتيرتها، وربما وُظّفت من زمن قريب.

وفتح الفتى الصغير الباب مرة أخرى، فقال له بوارو: هلاّ أخبرتني باسم الأرملة التي دخلت قبل قليل؟

- السيدة فيرونوا سكرتيرة سيدتي؟

- نعم، إنها هي. هلاّ طلبت منها أن تظهر قليلاً لنحدثها؟

توارى الفتى قليلاً ثم أتى مرة أخرى. قال: عذراً، السيدة فيرونوا ليست هنا.

- بل هي هنا. أخبرها أن اسمي هيركيول بوارو وقل لها إن من الضروري أن أراها الآن؛ فإني ذاهب إلى مدير الشرطة حالاً

دخل الرسول مرة أخرى، وبعد برهة جاءت المرأة ودخلت المجلس فتبعناها. وأماطت حجابها فكشف وجهاً نعرفه: إنها الخصم القديم، الكونتيسة الروسية، العقل المدبر لعملية سرقة المجوهرات الكبيرة في لندن!

قالت: أصارحُكما، عندما نظرتُ إليكما في الصالة توقعت العاقبة الأسوأ.

- عزيزتي الكونتيسة روساكوف...

هزت رأسها معترضة: الآن أنا إنيز فيرونوا، إسبانية متزوجة بفرنسي. ماذا تريد مني يا سيد بوارو؟ لقد سبق وأن اصطدتني في لندن والآن تلاحقني في باريس؟ هل ستخبر السيدة أوليفر؟ نحن الروس المساكين لنا حق العيش أيضاً!

- الأمر أشد خطورة؛ إنني أعتزم أن أدخل بيت الجيران وأحرر السيد هاليدي إن كان حياً... لقد عرفت كل شيء.

لاحظت شحوباً قاتلاً على وجهها، وعصف بها ذهول قوي لكنها ملكت نفسها بعزم: إنه ما زال حياً لكنه ليس هنا، ما قولك أن نُبرم بيننا عهداً: لي الحرية ولك السيد هاليدي حياً في صحة جيدة؟

- موافق، وقد كنت على وشك أن أقترح ذلك. لكنّ لدي سؤالاً: هل تشتغلين لحساب الأربعة الكبار يا سيدتي؟

رأيت الشحوب على وجهها مرة أخرى، لكنها تجاهلت سؤاله وقالت: هل تأذن لي بالاتصال بالهاتف؟

أجرت مكالمة هاتفية حيث السيد هاليدي محبوس، قالت: هل أنت أندريه؟ أنا إنيز. إن البلجيكي ذا القامة القصيرة قد عرف كل شيء، أرسِلْ هاليدي إلى الفندق ثم غادر المكان.

ردّت السماعة وجاءت إلينا تبتسم فقال لها بوارو: سترافقيننا إلى الفندق يا سيدتي.

- توقعت طلبك، أنا جاهزة.

أحضرتُ سيارة أجرة وانطلقنا معاً إلى الفندق. كنت أرى القلق على وجه بوارو، وكان الاضطراب والتوتر يسيطران على الجو والحذر يشمل الجميع، لكن الأمر تمّ سهلاً؛ فحين وصلنا إلى ساحة الفندق جاء حمّال الفندق - وقد عرف بوارو - فقال مستعجِلاً: الآن وصل رجل مريض وسأل عنك. إنه في غرفتك، أما ممرضته فقد خرجت سريعاً بلا انتظار.

- لا عليك، إنه صديقي.

وصعدنا مسرعَين إلى الغرفة فوجدنا شاباً هزيلاً منهكاً تظهر عليه علامات الإعياء والإرهاق يجلس عند النافذة خائر

القوى لا يستطيع كلاماً ولا حركة. سأله بوارو: أنت السيد جون هاليدي؟

هزّ رأسه.

- أرني ذراعك اليسرى.

كان تحت كوعه الأيسر شامة أكدت هويته لبوارو. بعد ذلك أنعش كأسٌ من الليمون المثلج هاليدي قليلاً، وهمس: يا إلهي، لقد كنت في جحيم! هؤلاء زمرة من الشياطين. أين زوجتي الآن؟ لقد أخبروني أنها تظن... هل هي تظن...؟

- كلا، هي لا تظن ذلك البتة. إنها تثق بك كثيراً، وما زالت تنتظرك.

- أشكر الله، لا أصدق أنني حر طليق.

- الآن أنت معافى يا سيدي، هلاّ قصصتَ القصة من أولها؟

أصابت الرجلَ حالةُ ذعرٍ وارتباك وتغيّر وجهه ثم قال: إنني لا أذكر شيئاً.

- ماذا؟!

قال هاليدي: هل سمعت بالأربعة الكبار؟

- نعم، قليلاً.

- أنت لا تعرف ما أعرفه. إن لديهم قوة غير محدودة، فإذا ما بقيتُ صامتاً فسوف أظل في أمان، أما إذا نطقت بكلمة فلن أشعر بالأمن لحظة واحدة، ولن يشعر بالأمن أقربائي وكل أعزائي. فلا تحاول الجدال معي؛ أنا على يقين من أمرٍ واحدٍ: إنني لا أذكر شيئاً!

ثم نهض وخرج من الغرفة في حين جعل بوارو ينظر إليه مذهولاً مدهوشاً كأنه ذاق مرارة الهزيمة. ومرة أخرى حاول أن ينطق بعض الكلمات بغيظ واضح، لكنها كانت مكتومة لا تكاد تُسمع: إذن فالمسألة هكذا؟ لقد ربح الأربعة الكبار مرة أخرى؟ ما هذه الورقة بيدك يا هيستنغز؟

- هذه ورقة كتبت عليها روساكوف قبل أن تغادر.

أخذها فقرأ فيها: «وداعاً، IV». إنه رقم يرمز إلى رقم «٤» باللاتينية... إنني أعجب يا هيستنغز، إنني أعجب!

* * *

الفصل السابع
لصوص الراديوم

أرّق الأنين الواصل إلى أذني من غرفة جاري في الفندق جفنَي فلم أنم، وكانت الشكوى المتقطعة التي أسمعها طوال الليل تحدث في نفسي أثراً عميقاً يطرد عني النعاس ويملأ ليلتي أسفاً وحزناً. إنها غرفة هاليدي التي نام فيها ليلة إطلاقه، وبدا واضحاً أن تجربته القاسية قد حطمت أعصابه وأخذت من نفسه مأخذاً عظيماً.

وعجزنا في الصباح أن ننتزع من هاليدي شيئاً؛ فقد كان خائفاً من انتقام هؤلاء الأشرار إذا تكلّم، وكان متأكداً من القوة الهائلة التي يملكها الأربعة الكبار حتى بات يرفض النقاش في أمرهم، فأكل غداءه ثم سافر إلى إنكلترا حيث زوجته وطفلته الصغيرة.

وجدت نفسي متحمساً للأحداث، ورأيت أن عليّ أن

أواجه بوارو من قريب أو بعيد، لكن هدوءه الذي كان يزعجني جعلني أقول: أرجوك يا بوارو، دعنا نفعل شيئاً.

- حسناً يا صديقي، فماذا نفعل؟

- نخبرهم عن الأربعة الكبار.

- نخبر من؟

- الشرطة.

تبسم بوارو ببرود ثم قال: إنهم لن يصدقونا، بل سيتهموننا بالجنون لأننا لا نملك شيئاً نستدل به. دعنا ننتظر.

- ماذا ننتظر؟

- ننتظرهم حتى يقوموا بتجربة. انظر إلى لعبة الملاكمة، اللعبة المفضلة لديكم في إنكلترا: إذا لم يتحرك أحدهما فلا بد أن يتحرك الآخر. يسمح أحدهما لخصمه بالهجوم ليعرف طريقته وأسلوبه، ونحن الآن ندع الخصم يهجم.

أوجست خوفاً وريبة من كلامه فقلت: هل تظن أنهم سيفعلون؟

- بلا شك. لقد حاولوا إخراجي من إنكلترا، ثم جريمة دارتمور التي ترمز لها معانٍ مقصودة، ثم تدخلنا وأنقذنا ضحيتهم

من المقصلة، وأمس تدخلنا مرة أخرى في خططهم... إنهم لن يقفوا حتماً ساكتين إزاء كل ما جرى.

كنت في تفكيري أتأوّل كلمته حين طُرق الباب، ومن غير استئذان دخل رجل إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه وجلس.

كان رجلاً طويلاً نحيفاً بشرته شاحبة وأنفه أعوج قليلاً، وكان يلبس معطفاً مزرّراً حتى ذقنه وقبعة ناعمة تغطي عينيه. قال بصوت ناعم: عذراً أيها السيدان، لقد دخلت دخولاً غير لائق، لكن مهمتي خطيرة.

وجلس وهو يبتسم بخبث، فأثارني هذا الموقف وكدت أثب من مكاني لولا أن بوارو منعني بإشارة من يده. ثم سأل هذا الزائر الثقيل: كان دخولك فظاً كما قلت، فما هي مهمتك؟

- عزيزي السيد بوارو، أريد أن أخبرك بصراحة: أنت تزعج أصحابي.

اجاثا كريستي & كتاب رواية

- كيف؟

- أنت تعرف كما أعرف يا سيد بوارو.

- ومن هم أصدقاؤك هؤلاء؟

لم يُجبه، بل أدخل يده في جيبه فأخرج علبة لفائف سحب منها أربعاً ونقرها على الطاولة ثم أعادها.

- آه، نعم، فالمسألة هكذا إذن؟ وماذا يقول أصدقاؤك؟

- يقولون: «عليك أن تُعمِل قدرتك الخارقة في غير هذا الشأن وأن تعود إلى حل مشكلات نساء المجتمع اللندني».

- يبدو أنه برنامج سلمي! وإذا لم أوافق؟

حرك الرجل يده حركة فيها معنى مقصود واضح وقال: طبعاً ستأسف وتندم كثيراً، وسوف يحزن كل أصحاب السيد هيركيول بوارو العظيم حزناً لا ينفعهم لأن الحزن - مهما اشتدّ - لا يمكن أن يعيد للأموات الحياة!

- حسناً، هبْ أنني موافق.

- إذن أدفع لك تعويضاً.

وأخرج من جيبه المحفظة فأخرج منها عشرة أوراق كل واحدة من فئة العشرة آلاف فرنك ألقى بها إلى الطاولة ثم قال: هذا ضمان حسن النية فحسب، وسوف تُعطى عشرة أضعاف هذا.

أدركتُ أن الخصم بين أيدينا وأن الفرصة مناسبة لإخبار الشرطة من أجل أكبر انتصار في هذا الزمان. كان قلبي ينبض بقوة، وشعرت بالهيجان ولم أعد أطيق انتظاراً، فصرخت بعنف وأنا أقفز من مكاني: يا إلهي! هل تظن...؟

لكن بوارو أقعدني بقوة وقال بحزم: اجلس يا هيستنغز،

اجلس مكانك. ما رأيك -يا سيد- لو اتصلت الآن بالشرطة وصديقي يمنعك من الهروب؟

- على كل حال افعل إن كنت تظنه من الحكمة.

صرختُ: لا أستطيع أن أحتمل أكثر.

ونهضت بسرعة فخطوت خطوات كبيرة إلى الباب وألصقت ظهري به، همس بوارو: يبدو أن هذه هي الطريقة المُثْلى.

فقال زائرنا وهو يبتسم: لكنك لا تثق بها، أليس كذلك؟

قلت بإصرار وعزم: هيا يا بوارو، لا تتأخر.

رفع بوارو السماعة فقفز الرجل قفزة مفزعة تشبه قفزة القط لكنها إليّ، وكنت على أُهْبة له فالتحمنا بعراك شديد أشبه بالمصارعة، وشعرت فجأة أنه ضعيف جعل يهوي بين يدي فزادني همة حتى طرحته أرضاً وشعرت بنشوة النصر، وأخذ خيالي يطوف في نهاية مسرحية.

ثم كان شيء غير عادي: وجدتني مقذوفاً ورأسي يضرب بالحائط، ونهضت مشدوهاً أبحث عن خصمي الذي اختفى، فركضت نحو الباب فوجدته مقفلاً عليّ، فأسرعت إلى الهاتف ورفعت السماعة وأنا أقول بانفعال: مكتب الاستقبال؟ أمسكوا الرجل قبل أن يخرج... رجل طويل يلبس معطفاً طويلاً مزرّراً وقبعة ناعمة، إنه مطلوب للشرطة.

مضت بضع دقائق قبل أن أسمع صوت المفتاح في الباب. كان مدير الفندق، وصرختُ صرخة مجنون: الرجل، هل أمسكتموه؟

- لا يا سيد، لم نرَ أحداً.

- وكيف وقد مرّ بك الآن؟

- لم يمر بي أحد بتاتاً.

بوارو: أظن أنكم مررتم بشخص ما ربما يكون موظفاً هنا؟

- نادل يحمل طبقاً لا غير يا سيد.

- نعم، هكذا إذن.

كانت الدهشة تملأ جو الفندق والحيرة تراها في وجوه المسؤولين، وخاض الناس في شك وتكذيب، لكن بوارو فهم المسألة فقال بثقة: من أجل هذا يلبس معطفاً مزرّراً حتى ذقنه.

همست بخجل وأنا أحس بالهزيمة: كنت أظن أنني أسقطته أرضاً!

- نعم، كانت خدعة يابانية. لا تثريب عليك يا صديقي، كل شيء سار حسب الخطة... خطتهم قطعاً، وهذا ما كنت أريده.

صرخت حين رأيت محفظة على الأرض، والتقطتها بلهفة. إنها من أثر المعركة، لا بد أنها سقطت من جيب زائرنا العزيز.

كان فيها فاتورة باسم السيد فِليكس لون، وورقة أخرى صغيرة من دفتر الملاحظات كُتب عليها بخط غير واضح بالرصاص. كانت هذه الكلمات مثيرة لنا: «اجتماع المجلس القادم يوم الجمعة، الساعة ١١ صباحاً، ٣٤ شارع إيشيليز». وإمضاء رقم «٤» بخط كبير.

وكنا في يوم الجمعة والساعة العاشرة والنصف. صرخت بذهول: يا إلهي! إنها فرصة ثمينة، الأمور الآن بأيدينا، يجب أن نبدأ من هذه اللحظة... لعل الحظ في هذه المرة يكون لنا.

همس بوارو كأنما يحدث نفسه: لقد جاء من أجل ذلك... أكاد أفهم كل شيء.

قلت: ماذا فهمت؟ متى ستكفّ عن محادثة نفسك يا بوارو؟

نظر بوارو إليّ نظرة إشفاق ثم ابتسم قائلاً: «قالت العنكبوت للذبابة: هلاّ دخلت بيتي يا عزيزتي؟»... هذا نشيد الأطفال عندكم يا معشر الإنكليز، أليس كذلك؟ الحذر الحذرَ يا صديقي، إنهم ماكرون دهاة ولكن ليس بدهاء هيركيول بوارو.

- لا أفهم شيئاً مما تقول يا بوارو.

- ما زلت أسائل نفسي عن زيارة الصباح هذه: هل كانوا يأملون بالنجاح في رشوتي أم هي زيارة ترهيب لأخافهم وأترك مهمتي؟ لكني الآن فهمت الحقيقة، إنها خطة ماكرة بلا شك ومحكمة في الوقت نفسه؛ الظاهر هو الرشوة أو الترهيب، لكن المعركة كانت من أجل أن يكون سقوط المحفظة أمراً محتوماً وأخيراً المصيدة: شارع إيشيليز في الساعة الحادية عشرة صباحاً. لكن القبض على هيركيول بوارو ليس سهلاً، فليعلموا!

عرفت أنني ساذج وبليد فقلت: يا إلهي، إنهم يعلّمون الشياطين المكر والدهاء!

مضى بوارو بالتفكير، ثم قال: لكن فيها لغزاً آخر: الوقت. لماذا لم يختاروا الليل؟ أليس الليل أحسن لهم؟ لماذا الساعة الحادية عشرة صباحاً؟ هل في هذا الصباح أمر يدبرونه لا يريدون أن يعرفه بوارو؟

كان بوارو في نوبة من الحيرة والقلق، ثم هزّ رأسه وقال: إنني باقٍ هنا ولن أغادر هذا الصباح. دعنا ننتظر، وسوف نرى.

* * *

مرّ الزمن بطيئاً ثقيلاً كأن الساعة لا تتحرك، وكان في رأسي

خيال كثير وحوادث. كنت أشعر أحياناً بالعجز والضعف عن المواجهة، وأحياناً أخرى بالإخفاق في أن أفهم ما يجري.

الساعة الآن الحادية عشرة والنصف ولم يحدث أي جديد. ثم طرق خادم الفندق الباب وسلم ورقة زرقاء لبوارو. إنها من السيدة أوليفر تطلب منه الحضور فوراً.

ذهبنا مسرعَين إلى السيدة أوليفر بلا تأخير، واستقبلتنا في المجلس الذي قعدنا فيه أمس، ووجدتُني في دهشة مرة أخرى من شخصية هذه المرأة القوية صاحبة الوجه الذي يشبه وجه الراهبة. كانت ذات عين متوقدة تكاد تسيطر على محدثها بنظرة ثابتة من طرفها، وبادرت بالقول: أمس قابلتماني من أجل هاليدي، وبعد انتهاء المقابلة علمت أنكما دعوتما إينز سكرتيرتي، لكن دهشتي أنها غادرت القصر معكما ولم ترجع حتى الآن.

- أهذه هي القضية أم أن لديك أمراً آخر؟

- بل الخطير أنّ اقتحاماً تمّ في الليلة الماضية للمختبر واختفت أوراق ومذكرات قيّمة، وقد حاول اللصوص سرقة شيء آخر أشد خطراً، لكنّ الخزانة - من حسن الحظ - كانت مقفلة بإحكام ففشلوا في فتحها.

- يجب أن تعرفي الحقيقة يا سيدتي: إن سكرتيرتك السيدة فيرونوا هي الكونتيسة روساكوف اللصّة المحتالة المشهورة،

وهي المسؤولة عن اختفاء هاليدي. لكن كم مضى عليها وهي تعمل عندك؟

- بدأت بالعمل معي منذ خمسة شهور تقريباً... لكن هذا يدعو إلى الذهول.

- هذه هي الحقيقة. هل كان العثور على الأوراق سهلاً أم أنه عمل يدل على معرفة سابقة؟

- الأمر العجيب أن اللصوص كانوا يعرفون ما يريدون تماماً، فهل تظن أن السيدة إينز...؟

- نعم، لا أشك في أنها هي التي دلّت على المكان. لكن ما هو الشيء الثمين الذي فشل اللصوص في سرقته؟ جواهر؟

- بل أثمن من الجواهر كثيراً يا سيد بوارو... **إنه راديوم.**

قالت الكلمة الأخيرة وهي تميل برأسها تجاه بوارو.

- راديوم؟!

- نعم، إنني الآن أقترب من النهاية في تجاربي. وقد كان عندي قدر قليل من الراديوم، ثم قُدّم لي قدر أكبر من أجل تمام أبحاثي، وهذا القدر -ولو كان ضئيلاً- فإنه بالنسبة إلى المخزون العالمي قدر عظيم تساوي قيمته ملايين الدولارات.

- وأين هو الآن؟

- في الحقيبة الرصاصية في الخزانة المحكمة، وهي خزانة

تبدو قديمة لكنها - في الواقع - انتصار فني في حقل الصناعة، وهي التي جعلت اللصوص يفشلون.

- ما هي المدة الذي تتوقعين أن تحفظي فيها هذا القدر من الراديوم؟

- لمدة يومين آخرين غير هذا اليوم ثم تنتهي تجاربي.

- هل تفهم السيدة فيرونوا هذا؟

- نعم.

قال بوارو: آه، إذن سيعود أصحابنا مرة أخرى. سوف أحاول أن أحمي ثروتك من الراديوم لكن لا تخبري عني أحداً. هل عندك مفتاح للباب الذي يؤدي إلى المختبر من الحديقة؟

- نعم، ها هو. عندي نسخة أخرى، وهذا مفتاح الباب الذي يؤدي إلى الممر الذي يطل على فيلا الجيران.

- شكراً لك يا سيدتي. اذهبي إلى النوم وأنت مطمئنة كالعادة، لا تقولي شيئاً لمساعديك... ولا سيما السكرتيرة. دعي الأمر لي.

كان بوارو متهلل الوجه وهو يغادر بيت السيدة أوليفر، وكان يفرك يديه فرحة بنصر مرتقب. كانت الأمور كأنما تشير نحو الأحسن.

سألته: ماذا ستفعل الآن يا بوارو؟

- الآن يا هيستنغز سوف نغادر باريس إلى إنكلترا.

- ماذا؟

- كما أقول لك، سوف نحزم أمتعتنا ونأكل غداءنا ونذهب بالسيارة إلى جيردونورد.

- والراديوم؟

- قلت إننا سوف نسافر إلى إنكلترا، ولم أقل إننا سنصل هناك. أعمِلْ دماغك مرة يا هيستنغز، ألا تدرك أنك مراقَب؟ يجب أن يطمئنوا إلى أننا ذاهبون إلى إنكلترا، ولن يطمئنوا حتى يرونا نركب القطار وننطلق.

- وننسلّ من القطار في آخر لحظة؟

- لا يا هيستنغز، فلن يرضيهم أقل من المغادرة التي لا خداع فيها.

- لكن القطار لا يتوقف إلا في كاليه.

- سيقف في حالة واحدة: إذا دفعنا له.

- سوف يرفضون ولا يقبلون. كيف يقف قطار سريع؟

- توجد حيلة. ما هي غرامة إساءة استعمال المقبض الصغير الذي يُصدر إنذار التوقف في القطار؟ مئة فرنك؟

- هل ستمسك مقبض الباب وتسحبه أنت يا بوارو؟

- بل صديقي بيير كومبوا سيفعله، وسوف يثير ضجة كبيرة مع الحارس فيسبّب مشهداً يستحوذ على انتباه المسافرين فننسل نحن في أثناء ذلك خارجَين.

* * *

سارت خطة بوارو كما رسم لها بعد أن قَبِل صديقه القديم (الذي كان على صلة ببوارو ومعرفة بأسلوبه ومنهاجه في العمل) واستطاع أن يصطنع ضجة كبيرة كأنها قنبلة دخانية سترت فرارنا من القطار دون أن يُحسّ بنا أحد، وتنكرنا تماماً بعدما اشترى بوارو ما يلزم ذلك ووضعه في حقيبة صغيرة، وأصبح من غير السهل أن يعرفنا أحد بعد أن صار شكلنا يدل على اثنين متسكعين يلبس كلاهما قميصاً ضيقاً قذراً ذا ألوان فاقعة تدعو إلى السخرية!

أكلنا غداءنا في أحد مطاعم باريس المغمورة وانتظرنا مغيب الشمس وحلول الليل على شوارع باريس وأزقتها، حتى إذا سيطر الظلام وأخذت مصابيح البيوت والحوانيت تقطع الظلام الدامس على جوانب المكان صرنا قريبَين من منزل

السيدة أوليفر، ونظرنا إلى أعلى المكان وأسفله فلم نرَ أحداً، فتسللنا إلى الممر المغطى بالشجر الموحش المهجور.

كنا متأكدَين أنْ لا أحد يتعقبنا، لكن صوت الرياح الباردة التي كانت تحرّك أوراق الشجر كانت تثير الرهبة.

ربما كنّا مقدمَين على مواجهة مع هؤلاء اللصوص الذين ألفوا الموت فضلاً عن القسوة والقتل لأتفه الأسباب، وهمس بوارو: لا أظن أنهم قدموا إلى المكان حتى هذه اللحظة، وربما لا يأتون اليوم. إنهم يعلمون أن لديهم ليلتين حتى يسرقوا الراديوم.

أدار بوارو المفتاح في القفل بحذر شديد ودخلنا حديقة البيت بخفة، لكننا وجدنا أنفسنا في فك الذئب المرعب فوقعنا في الفخ... عشرة من الرجال كانوا يحيطون بنا في الخفاء كالسوار، ولم تجدِ المقاومة شيئاً. أوثقونا ثم حُمِل الواحد منا كما تُحمَل حزمة القش، وفُتح باب المختبر وزجونا فيه، ثم انحنى أحدهم أمام الخزانة الكبيرة وفتح بابها.

شعرت برعدة خوف قاتلة تسري في عروقي وأيقنت أننا سنوضع في هذه الخزانة حتى نموت اختناقاً، ولكن باب الخزانة -لدهشتي الشديدة- انفتح عن درجات تنزل إلى ممر سرّي إلى الأسفل!

دُفعنا على الدرجات بقوة، ثم إلى غرفة سرية مرعبة،

وهناك رأينا قامة سوداء مهيبة: امرأة طويلة تلبس الثوب الأسود الطويل وتغطي وجهها بقناع من المخمل الأسود، وكان واضحاً أنها صاحبة السلطة وسيّدة الموقف، تدل على ذلك إشارتها الصامتة الآمرة التي يمتثل لها الرجال الأشدّاء.

قذفَنا الرجالُ على الأرض وتركونا وحدنا مع هذه المخلوقة الخفية خلف القناع الأسود، ولم يخامرني أدنى شك أن هذه المرأة هي رقم «٣» من الكبار الأربعة، المرأة الفرنسية المجهولة.

جثت على ركبتيها ونزعت الكمامتين عن وجهينا، ثم نهضت وانتصبت أمامنا، وبحركة مفاجئة سريعة نزعت قناعها وكشفت الغموض.

إنها السيدة أوليفر!

قالت بتهكم وسخرية: سيد بوارو العظيم صاحب الذكاء الخارق! لقد أرسلتُ إليك تحذيراً صباح أمس لكنك لم تأبه له وظننتَ أنك تستطيع مواجهتنا بذكائك الرائع، أليس كذلك؟ لكنك أتيت بقدميك إلى هذا الموقف الذي لا تحسد عليه.

لم يُجِبْ بوارو لكني رأيت فكه الأسفل يرتخي وهو يحدق إليها. لا شك أن المفاجأة أذهلته، وقالت هي بلطف: حسناً، هذه هي النهاية. لن نسمح لأحد أن يعترض خططنا، فاطلب طلبك الأخير.

كنت أراقب الموقف ورأيت الموت أمامي. الموت له رائحة تعرفها تملأ المكان، لكن القتيل وحده هو الذي يشم رائحته. وذكرت زوجتي وأطفالي... صور وخيال وشريط من الأحداث يمر سريعاً في ذهني المكدود قبل أن أنظر إلى وجه بوارو.

وفوجئت بهيئة بوارو الهادئة؛ لم تبدُ عليه آثار الخوف أو الفزع ولم يغزُ الشحوب وجهه. كان رائعاً حقاً، عيناه على السيدة أوليفر، وقال بثبات: حسناً أيتها المرأة الفاضلة، إن فيكِ طبيعة مثيرة للاهتمام لكن الوقت لا يسع دراستها. لديّ طلب بسيط؛ الرجل المدان يُسمح له بالتدخين للمرة الأخيرة، في جيبي علبة لفائف لو تكرمت بالإذن.

ثم نظر إلى القيد في يديه، فضحكت وهي تقول: تريدني أن أفك قيدك، أليس كذلك؟ أنت ذكي بلا شك، لكني لن أفك يديك وسأجد لك لفافة التبغ التي تريدها.

مدت يدها إلى جيبه وأخرجت علبة اللفائف فأمسكت منها واحدة ووضعتها بين شفتيه ونهضت قائلة: والآن عود الثقاب؟

- لا، ليس لازماً، لا أحتاج إليه.

كان في صوته جَرْس غريب أجفلني وأثار الريبة في نفس السيدة أوليفر فارتعدت، فيما نطق هو بهدوء: لا تتحركي،

سوف تندمين إذا فعلتِ. انتبهي إليّ جيداً، أظن أنك تعرفين جيداً مادة الكورار، هنود أمريكا الجنوبية يدهنون بها سهامهم، إن خدشاً بسيطاً بها يعني الموت. بعض القبائل يستعملون أنبوب النفخ وهذا ما أملكه لكن على شكل لفافة تبغ، وما عليّ سوى أن أنفخ فيها. إن هذه اللفافة مدهشة؛ أنفخ فيها فيخرج سهم دقيق كعظمة السمكة نحو هدفه يطير سريعاً كالبرق. أنت حتماً لا تريدين الموت يا سيدتي، إذن عليك أن تحرري صديقي هيستنغز من قيوده. تعلمين أنني أستطيع أن أدير رأسي في كل الاتجاهات ويداي مقيدتان، فإياك أن تفكري في أي خدعة، وحذار حذار من الخطأ وإن يكن صغيراً.

رعشة رعب سيطرت عليها. كانت يداها ترتعدان وغدا وجهها مصفراً كئيباً وشفتاها تميلان نحو الزرقة وحركاتها تنطق بالحقد، لكنها نفذت أمر بوارو بدقة.

ثم جاء صوت بوارو يستمر في الأوامر بعد أن أصبحت حراً من قيودي: سيد هيستنغز، قيد السيدة بسرعة، أحكمْ قيدها، تأكد من ذلك.

ثم حررت بوارو من قيوده فوراً وتلمسنا طريق الخروج فوجدناه مفتوحاً. وقبل أن نفر من المكان اتجه بوارو نحو السيدة فانحنى لها وهو يقول: إن هيركيول بوارو لا يقتل بسهولة يا سيدتي، ليلةً طيبة.

وبعد ثلاث دقائق كنا نجتاز المكان مسرعَين وأنا ما زلت

أكذّب نفسي أننا عدنا إلى الحياة مرة أخرى وما زلت في ذهول تام ولساني معقود من الانطلاق. هل كان حلماً مزعجاً؟

اندفع بوارو يثرثر وقد انتابه هيجان مثير، يتكلم بمزاج حاد لا يكاد يضبط الكلام: أنا أستحقّ كل ما قالته لي المرأة. إنني أحمق ثلاث مرات وأبله وحيوان تعِس غبي ستاً وثلاثين مرة! ربما أستطيع أن أفخر بنفسي أنني نجوتُ منهم لكن تقديري كله كان خطأ، لقد نجحوا في خداعي ووقعت في الشرك كما أرادوا. عرفوا أنني سأواصل حتى النهاية فصنعوا - لذلك - ما صنعوا.

الآن أصبح كل شيء واضحاً: السهولة التي استسلموا بها وتسليم هاليدي... السيدة أوليفر كانت هي الحاكمة، أما فيرا روساكوف فهي نائبتها، وقد استطاعت أن تتم أبحاثها بواسطة المعلومات التي أخذتها من هاليدي. لقد عرفنا إذن من هو رقم «٣»... إنها أعظم امرأة في العالم! الأربعة الكبار - إذن - جماعة تضم عقل الشرق وعقل الغرب وقوتين أخريين مجهولتين. يجب أن نعرفهما... يجب ذلك يا هيستنغز. سنعود إلى لندن لنبدأ البحث مرة أخرى.

- ألا تريد أن تخبر الشرطة عن السيدة أوليفر؟

- لن يصدقوني يا عزيزي. هذه المرأة رمز من رموز فرنسا، كما أننا لا نملك دليلاً. سنكون محظوظين إن لم تبلغ هي الشرطة عنا.

- ماذا؟!

- نعم، لقد وُجدنا في قصرها ليلاً ومعنا مفتاحه، ولن يكفي أننا قيدناها وكممناها بشكل مدهش واستنقذنا أرواحنا من مخالب الموت.

* * *

الفصل الثامن

في عقر بيت الخصم

بعد تلك المغامرة الرهيبة في فيلا باسي لم نعد نطيق المقام في باريس، فانطلقنا مرتحلَين إلى إنكلترا على عجل، وهناك وجد بوارو كومة من الرسائل بانتظاره. قرأ إحداها والبسمة على وجهه، ثم دفعها إليّ وقال: اقرأ هذه الرسالة.

كانت الرسالة مذيَّلة بإمضاء آبي ريلاند، فذكرت أنه ذاك الرجل الذي وصفه بوارو مرة بأنه أغنى رجل في العالم، وكانت تعرب عن قلق ريلاند لأن بوارو تخلى عن قضية أمريكا الجنوبية في آخر لحظة.

قال بوارو: هذه الرسالة تجعلني أبذل مزيداً من التفكير المتواصل العميق، أليس كذلك؟

- لكن من الطبيعي أن يبدي الرجل أسفه، وله الحق أن يغضب.

- لا يا هيستنغز، أنت ثقيل الفهم. ألا تذكر كلمات

مايرلنغ، ذلك الرجل الذي فر إلينا من الموت فوجد الموت ينتظره. لقد قال إن رقم «٢» يُرمَز له بعلامة الدولار أو بشريطين ونجمة، وهكذا نحدس أن يكون أمريكياً وأنه يمثل قوة الثروة، زِدْ عليه أنه عرض عليّ قدراً سخياً من المال من أجل إغرائي بالخروج من إنكلترا. ماذا تفهم من ذلك يا هيستنغز؟

قلت له وأنا أنظر إليه نظرة أبله: هل تقصد أنك تشكّ في آبي ريلاند صاحب الملايين أنه رقم «٢» من الأربعة؟

- بدأت تفهمني قليلاً يا هيستنغز. نعم، إنني أشك فيه. المشهور عن ريلاند أنه رجل ثري وقوي لكنه عديم الضمير، رجل يملك كل الثروة وسلطته لا حدود لها لكنه لئيم وسيء في المعاملة، ولا يستطيع أحد أن يقف في وجهه لأن لديه قوة خارقة.

facebook.com/groups/agathalovers/

- منذ متى فكرت بهذا الاحتمال؟

- إنها فكرة مجردة تجول في خاطري. ليس لدي أي دليل يثبت هذه الفكرة، لكنني مستعد لأن أقدّم كثيراً كثيراً من أجل معرفة ذلك، وأنا أظن أن النظرية التي تقول إن رقم «٢» هو ريلاند سوف تساعدنا على الاقتراب من الهدف.

- تستطيع أن تزوره وتعتذر له.

- ربما كان سهلاً أن أفعل ذلك.

* * *

بعد يومين عاد بوارو إلى المنزل وهو مصاب بالدهشة والانفعال، ثم أمسك بي بكلتا يديه كما يفعل عادة عند تحمسه وقال: يا صديقي، إنها مناسبة مذهلة حقاً ربما لا تتكرر أتت من غير تدبير، لكن فيها خطورة ومغامرة حتى إنني أكاد لا أطلب منك المحاولة.

- إذا كنت تحاول أن تلقي الروع في صدري فأظنك تسير في الاتجاه الخطأ يا بوارو.

وبعد أن هدأ قليلاً وخفّت حماسته كشف خطته التي تقتضي أن أتقدم بطلب عمل لدى آبي ريلاند بعد أن أعلن في الصحف أنه يحتاج سكرتيراً إنكليزياً من ذوي النمط الاجتماعي الراقي وذوي الكفاءة العالية والحضور المميز.

قال لي بوارو يعتذر: ربما أستطيع أنا أن أدبر نفسي، لكن الأمر يبدو صعباً: أن أتكلف دور المحتاج وأُنكّر شخصيتي المشهورة. وربّما كنت أتكلم الإنكليزية بطلاقة ولكن سيكون عليّ أن أضحي بشواربي... وحتى لو تخليت عن شاربيّ أيضاً فسأظل معروفاً أنني هيركيول بوارو.

وافقته أن الأمر عسير عليه وأعلنت استعدادي ورغبتي في اختراق بيت ريلاند وقلت إنني أطمح للنجاح.

- سوف أهيء لك الشهادات التي تجعل ريلاند يلعق

شفتيه، سأجعله يحط على يدي كعصفور أتى لينقر كسرة الخبز.

كانت الخطوة الأولى أن نذهب إلى فنان في المكياج. حدّق المزين إليّ ملياً وهو صامت، وكنت أنظر في رأسه الصغير وحجمه الضئيل مثل هيركيول بوارو، ثم بدأ صنعته بجد وهمة.

بعد ساعة تقريباً قمت إلى المرآة فنظرت فأذهلني مشهد نفسي: حذاء خاص جعلني أطول بإنشين، ومعطف طويل أبدو فيه نحيفاً طويلاً، وقد تغير شكل حاجبيّ وباتت ملامح وجهي مختلفة تماماً، فاختفى شاربي وظهرت من جانب فكي الأيمن سن ذهبية، وتحوّل لوني من السمرة إلى البياض... إن المظهر بلا شك ذو قدرة على الخداع.

نظر بوارو وقال: اسمك هو آرثر نيفلي. يحفظك الله يا عزيزي، أرجو الله أن ينجيك من الخطر.

* * *

قدمت نفسي في فندق سافوي في الموعد الذي حدده آبي ريلاند.

قادوني إلى غرفة علوية حيث كان يجلس رجل طويل خلف طاولة ضخمة، لقد بدا نحيفاً طويلاً وله ذقن بارزة وأنف معقوف قليلاً، عيناه اللامعتان تكادان تختفيان تحت حاجبين

غليظين، أما شعره فقد كان رمادياً غزيراً، وكان في فمه سيجار طويل لا يكاد يتركه. وكان يتكلم بطريقة فظة من طرفٍ من فمه، وكان يمنّ على محدثه بعدد الكلمات، بل يُشعره أنه يتفضل عليه بالحديث.

جلستُ وقلبي يدقّ عنيفاً حتى خشيت أن يسمع دقّه! وكانت أمامه رسالة من رسائل التزكية التي أعدها بوارو بعناية. قال: في هذه الرسالة أنك ثقة، فهل تجيد فن المجاملة الاجتماعية؟

- أظن أنني أستطيع إرضاءك في هذا.

- لو كان عندي جماعة فيهم الدوق والأيرل والفيكونت يجتمعون في بيتي الريفي، هل تستطيع أن تجلسهم كلاً في مقعده المناسب؟

أجبته وأنا أبتسم بثقة: بكل سهولة يا سيدي، هذا مما أُتقنه.

تبادل معي حديثاً قصيراً ثم أشعرني بالموافقة، ووجدت نفسي مستخدَماً عنده، فقد كان ريلاند يريد سكرتيراً مطلعاً على خبايا المجتمع الإنكليزي حيث كان عنده سكرتير آخر أمريكي وكاتبة اختزال.

* * *

بعد يومين توجهت إلى هاتون شيز مركز دوق مقاطعة لوشير الذي استأجره ريلاند لمدة ستة أشهر، وهناك لم أجد صعوبة في تأدية واجبي؛ فقد عملت - ذات يوم - سكرتيراً لأحد أعضاء البرلمان.

كان ريلاند يستضيف نخبة من كبار الناس في نهاية كل أسبوع، أما سائر أيام الأسبوع فكانت هادئة نسبيّاً. وكان في البيت ثلة من الموظفين: كبير الخدم ومدبّرة المنزل والطاهي وخدم وخادمات... وحاولت إمعان النظر فيهم جميعاً ومعرفتهم عن قرب، فكنت أشعر بالريبة بكبير الخدم، أما الشاب الأمريكي السيد أبلباي فقد بدا مرتاحاً يثق بنفسه ويتقن عمله باقتدار. أما ديفز الخادم الخاص للسيد ريلاند الذي أحضره من نيويورك فبدا لي شخصاً غامضاً وكانت نفسي تمتلئ شكوكاً فيه، لكن سيده كان يثق فيه تماماً.

اجاثا كريستي & كتاب رواية

واجتهدت أن أتقرب من الآنسة مارتن كاتبة الاختزال. كانت في الثالثة والعشرين تقريباً، ذات عينين عسليتين وشعر خروبي مسترسل، وحاولت كسب ثقتها لا سيما بعد أن تبين لي أنها تكره سيدها ولا تثق به.

مكثت في هاتون شيز ثلاثة أسابيع، وكانت حياة هادئة لا حوادث فيها، حيث لم أستطع أن أعرف شيئاً يستحق الذكر، وبدا ريلاند في نظري شخصية ذات مكانة اجتماعية متميزة لها القدرة على التأثير ولا يبدو أنه على صلة بمنظمة الأربعة الكبار.

وكانت تترسخ في نفسي قناعة أن بوارو قد أخطأ في ظنه الجائر الذي يربطه بهذه المنظمة المشبوهة إلى أن سمعته مرة يذكر بوارو حين كان يأكل عشاءه في إحدى الأمسيات: يقولون إنه رائع ذلك الرجل الضئيل، لكني وجدته انهزامياً. لقد اتفقت معه على صفقة ولكنه رفضها في الدقيقة الأخيرة، إنني لا أود معاملة صاحبك هيركيول بوارو مرة أخرى.

في تلك اللحظة شعرت بزيف المكياج الذي يكسو وجهي. ثم حصلت على قصة مثيرة عندما سافر ريلاند إلى لندن ومعه أبلباي، فقد كنت أسير في الحديقة مع الآنسة مارتن بعد شرب الشاي، وبدت الفتاة طبيعية جداً وغير منفعلة، لكني كنت ألمح أسراراً وأحاديث تجول في رأسها، وأخيراً قالت: هل تعلم -يا ميجر نيفلي- أنني أفكّر في الاستقالة من عملي في هذا المكان؟

ظهرت عليّ علائم الدهشة فيما تابعت هي قائلة: آه! أدرك أن كثيراً من الناس سينعتونني بالحماقة؛ إنهم يحسدونني على هذه الوظيفة، لكني ما عدت قادرة على تحمل المزيد من الشتائم. لا أحد يصدق أن مثل هذه الأفعال تصدر عن مثل هذا الشخص العظيم!

- وهل يسيء ريلاند إليك؟

هزت رأسها ثم قالت: إنه سريع الغضب وذو مزاج متقلب، وهذا لا يُحتمل، وهو إذا صار ثوراً هائجاً كاد يبطش

بمن يلقاه لأتفه الأسباب. لا أحد يستطيع احتماله، إنها مشكلة تستعصي على الحل.

قلت وأنا أرجو سماع المزيد: هل لك أن توضحي الأمور؟

- كما تعلم فإنني أفتح كل رسائل السيد ريلاند فأسلم بعضها إلى أبلباي والأخرى أقوم بالإجراءات التي تخصها بنفسي، وإذا فرزت الرسائل الأولى عليّ أن أتعامل بحذر مع نوع ما من هذه الرسائل، وهي التي تجيء مكتوبة على ورق أزرق وقد ظهر على أحد أطرافها رقم «٤» بخط صغير.

وعندها لم أستطع كبح صرخة ذهول انطلقت من أعماقي، لكنني حاولت خنقها في مهدها مما جعلها تنظر إليّ قائلة: عذراً، هل تريد أن تقول شيئاً؟

- لا، لا شيء بتاتاً، أكملي أكملي.

- حسناً، الرسائل التي تحمل هذا الرقم لديّ أمر صارم بعدم فتحها، ويجب تسليمها إلى السيد ريلاند نفسه. وقد حدث في صباح أمس أن فتحت إحدى هذه الرسائل خطأ فذهبت من فوري إلى السيد ريلاند وشرحت له الموقف واعتذرت له كثيراً، لكنه انقلب فجأة إلى صورة شيطانية مرعبة وكاد يفتك بي... كنت خائفة منه جداً.

- وهل كان الأمر يستحق كل هذه الثورة؟ ماذا كان في الرسالة؟

- لا شيء البتة، وهذا مما يدعو إلى التساؤل ويثير الدهشة. لقد قرأتها قبل أن أكتشف خطئي وأذكرها كلمة كلمة، لم يكن فيها ما يدعو إلى القلق.

- شجعتها قائلاً: هل تستطيعين تكرارها؟

- نعم، كانت على النحو التالي: «سيدي العزيز، الأمر ضروري الآن، لذا عليّ رؤيتك. إذا أردت تضمين المحجر فربما كان مبلغ ١٧ ألفاً معقولاً، لكن ١١٪ عمولة تبدو كثيرة، ٤٪ نسبة كافية. المخلص: آرثر لافير شام».

أصغيت إلى حديثها بكل عناية مع تظاهري بعدم الاهتمام، فيما تابعت قائلة: من الواضح أن السيد ريلاند كان يفكر في شراء بعض الأملاك، لكني أشعر أن في الأمر ما يدعو لإثارة الفضول في الحقيقة. إنه يبدو رجلاً خطيراً، فماذا تنصحني يا سيد نيفلي؟ إن خبرتك في الحياة أكبر.

حاولت تهدئة الفتاة قليلاً مشيراً إلى أنه ربما كان يعاني من حالة صحية سيئة، وقد بدا عليها الارتياح لكني لم أشعر بالاطمئنان إلى السهولة التي تم بها الأمر.

غادرت الفتاة المكان فجلست وحدي أفكر بهذه الرسالة المهمة التي دُوّنت كلماتها على عجل. بدت الرسالة صادقة

وليس فيها ما يدعو للإثارة، فهل كانت تخفي صفقة تجارية ينوي ريلاند إنجازها؟ وهل هو حريص على أن لا تُكشف أي أسرار منها قبل إنجازها؟ ربما، فهذا جائز، لكن العلامة التي كانت تظهر على المغلفات هي موطن الإثارة... رقم «٤» بخط صغير!

مكثت طول ذلك اليوم ومعظم نهار اليوم التالي وأنا أفكر في هذه الرسالة، وفجأة شعرت أنني اهتديت إلى الحل. رقم «٤» كان هو الدليل، فحين نقرأ كل رابع كلمة في الرسالة تظهر رسالة أخرى مختلفة: «ضروري رؤيتك، المحجر، ١٧، ١١، ٤».

الأرقام كانت تعني بسهولة: ١٧ من الشهر، وهو اليوم الذي يصادف غداً، ١١ هي الساعة، رقم ٤ هو الإمضاء المعروف، أما المحجر فهو إشارة إلى المحجر المهجور الذي كان يبعد نصف ميل عن بيت ريلاند، وهو منطقة معزولة تصلح للقاءات السرية.

شعرت بالفخر عندما تمكنت من فهم اللغز، وشعرت بفرحة غامرة وسعادة في داخلي لأنني ربما تفوقت في هذه المرة على بوارو، مما جعلني أفكر في مغامرة كشف هذا اللقاء وحدي، لكني - في النهاية - بعد تفكير وتردد قهرت هذا الإغراء وعلمت أن هذا عمل كبير خطير ربما يعرض فرصة نجاحنا إلى الخطر، ولا بد من إعلام بوارو، فهو يملك عقلاً أفضل مني بكل تأكيد.

كتبت له رسالة تبين الحقائق وأوضحت له ضرورة رصد ذلك اللقاء، وكشفت له رغبتي في إدارة اللعبة وحدي إذا رأى ذلك من الحكمة، ثم أخذت الرسالة بنفسي إلى محطة البريد وقد فصّلت له كيفية القدوم إلى المكان إذا لم أستطع مقابلته في المحطة.

كنت شديد الانفعال في مساء اليوم التالي، وكان المنزل خالياً من الضيوف ولكني كنت مشغولاً طوال المساء مع السيد ريلاند، وقد فقدت الأمل في أن أستطيع لقاء بوارو في المحطة، لكني كنت واثقاً من أنني سوف أغادر قبل الحادية عشرة.

كان عقرب الساعة يقترب من العاشرة والنصف عندما نظر ريلاند إلى ساعته وأشار بأن العمل قد انتهى ذاك اليوم، ففهمت الإشارة وانسحبت بهدوء نحو الطابق العلوي كأنني أريد الاستعداد للنوم، لكنني تسللت إلى الأسفل بهدوء عبر درج جانبي، ثم تسللت إلى الحديقة وقد أخذت حذري ولبست معطفاً أسود طويلاً.

نظرت خلفي فجأة فوقَعَتْ عيناي على السيد ريلاند يخرج من نافذة مكتبه إلى الحديقة مسرعاً لكي يفيَ بوعده، فانطلقتُ مسرعاً أكثر لكي أسبقه إلى المحجر، وهناك كان المكان خالياً فتوجهت نحو شُجيرات منعزلة متشابكة في إحدى زوايا المحجر لأرقب الأحداث.

وبعد عشر دقائق ظهر ريلاند يمشي بتشامخ، يلبس قبعته

التي تدلت على عينيه وفي فمه سيجاره الذي لا يفارقه. نظر حول المكان ثم نزل في حفر المحجر، وسمعت همس رجال كان يصل إلى أذنيّ مما يشير إلى أن الرجال الآخرين كانوا قد وصلوا إلى المكان أولاً. فخرجت من بين الشجيرات بهدوء شديد دون أي ضجيج، وتسللت منحدراً نحوهم ببطء وحذر شديدين واختفيت خلف صخرة كبيرة كانت تفصلني عنهم.

كان الظلام يلف المكان وكنت أسمع حديثهم بوضوح، وشعرت أنني آمن في موقع إستراتيجي غير مرصود، ولكن المفاجأة المحتومة وقعت عندما نظرت إلى حافة الصخرة فوجدت نفسي - فجأة - أمام فوهة بندقية مصوبة نحوي، وإذا الرجل يكمن قرب الصخرة وقد وقعت في الشرك تماماً... يا للفزع!

صرخ فيّ بلهجة مرعبة، وشعرت بفوهة البندقية الباردة على قفا عنقي. قال ريلاند متشدقاً: مرحباً، لقد كنت أنتظرك.

ثم صاح بالرجل: حسناً يا جورج، أحضره هنا.

قادني الرجل وأنا أمتلئ غيظاً وحنقاً من هذا الفشل الكبير بعد أن تم تكميمي وتكبيلي بإحكام، وخاطبني ريلاند بلهجة حازمة كلها تهديد ووعيد: هذه هي نهايتكما، لقد حاولتما التدخل في شأن الأربعة الكبار أكثر من مرة، ولن يكون الأمر سهلاً. هل سمعت بالانهيار الصخري؟ لقد حدث مثل هذا الانهيار في هذا المكان قبل سنتين، وسيحدث انهيار آخر بعد

قليل هنا أيضاً، وسوف يتم ذلك بكل دقة وإحكام. لكن صديقك لا يحترم مواعيده بدقة كما يبدو، أليس كذلك؟

اجتاحتني موجة رعب وشعرت بالرعدة تسري في جسدي حين ذكرت بوارو وأنه بعد لحظات سوف تقوده قدماه إلى الفخ وأنا لا أملك أية وسيلة لتحذيره من هذا المصير المشؤوم... أستطيع فقط أن أدعو الله راجياً أن لا يأتي هنا. ومع مرور الوقت كنت أشعر بالاطمئنان.

وفجأة اندفعا بسرعة بعد سماع وقع أقدام تقترب. كان القادم هو بوارو، وصرخ ريلاند: ارفع يديك.

قفز ديفز مرافق ريلاند وفاجأ بوارو من الخلف؛ لقد اكتمل الكمين. وقال ريلاند: أنا مسرور بلقائك يا سيد بوارو.

بدا بوارو ضابطاً أعصابَه بصورة عجيبة؛ لم يضعف ولم يهتز، لكني رأيت عينيه تبحثان يمنة ويسرة في الظلمة، وسأل: صديقي، هل هو لديكم؟

- نعم، كلاكما في الفخ، فخ الأربعة الكبار.

ابتسم بوارو بسخرية ثم سأله: فخ؟ أي فخ هذا؟

- ألم تدرك ذلك حتى هذه اللحظة؟

- أدركُ أن هناك فخاً، لكنك مخطئ في ظنك يا سيد. أنت الذي وقع في الفخ لا أنا وصديقي.

- ماذا تقول؟!

رأيت الاضطراب على وجه ريلاند فيما راحت عيناه تبحثان في المكان والتطير قد بدأ يظهر في حركاته ونبرة صوته.

- إذا أطلقت النار فإنك ترتكب جريمة قتل أمام عشر عيون ترقب الحدث، وسوف تُشنق بسببها. المكان محاصر تماماً، رجال سكوتلانديارد يحيطون بالمكان منذ ساعة. لقد سقط الملك في هذه الجولة يا سيد آبي ريلاند.

ثم أصدر صفيراً حاداً، وفي برهة وجيزة أصبح المكان يضج بحركة الرجال المسلحين حقاً وكأن ذلك تم بطريقة سحرية. أمسكوا بريلاند وخادمه الخاص وجردوهما من السلاح، ثم تحدث بوارو بضع كلمات مع الضابط المسؤول، وبعد لحظات أصبح المكان خالياً من الرجال والحركة. وأقبل بوارو يعانقني وكأنني في حلم ليلي مرعب.

- إنك لم تُصَبْ بأذى، هذا رائع، لقد لمتُ نفسي كثيراً لأنني تركتك تذهب وحدك.

- أنا في صحة تامة، لكني مضطرب قليلاً. لقد سقطت في شركهم الصغير، أليس كذلك؟

- لكني كنت أنتظره، ومن أجل هذا كان عملك مع هذا الشخص. اسمك المزيف وشخصيتك التضليلية لم يقصد بهما الخداع أبداً يا عزيزي.

- ماذا تقول؟ هل أنت جاد في حديثك؟ لماذا لم تخبرني بشيء عن هذا كله؟

كانت الأسئلة تتبعثر من بين شفتيّ من الدهشة بلا ضبط، وشعرت بعجزي عن فهم هذه اللعبة.

- كما قلت لك يا هيستنغز: إنك تتمتع ببراءة الأطفال يا صديقي، وإذا لم تكن مخدوعاً فيصعب عليك أن تخدع هؤلاء. لقد اكتُشفْتَ من أول لحظة وقد توقعتُ كل ما حدث؛ إنها مسألة رياضية واضحة النتيجة لكل من يُعمل خلاياه الرمادية بشكل صحيح. لقد حاولوا أن يجعلوك طعماً وكانت الفتاة هي الوسيلة، فهل كان شعرها أحمر؟

- إن كنت تقصد الآنسة مارتن فإن شعرها يحوي ظلاً ناعماً من اللون الخروبي، ولكن...

- لقد درسوا شخصيتك بإمعان، إنهم جماعة مدهشون بالفعل. نعم يا صديقي، كانت الفتاة متورطة تماماً في المؤامرة، لقد كررت عليك الرسالة وهي تروي قصتها مع ريلاند، إنها طريقة ذكية بلا شك، وأنت استطعت تحليل الشفرة التي لم تكن صعبة على كل حال، لكن الشيء الذي لم يحسبوا حسابه أنني كنت أنتظر هذا الفعل الذي سيقدمون عليه ثم تدبرت الأمور مع جاب، وهكذا انتصرنا كما ترى.

* * *

لم أشعر بالسرور تجاه ما حدث ولم أكن راضياً عن أسلوب بوارو هذا، وقد علم شعوري.

وفي صباح اليوم التالي توجهنا إلى لندن في قطار الحليب الذي ينطلق مبكراً في رحلة غير مريحة أبداً.

وخرجت من الحمام للتو غارقاً في أحلامي بفطور لذيذ وإذا بصوت جاب يعلو من غرفة الجلوس: لأول مرة أشعر أنك تندفع سريعاً يا بوارو، ما هذا السراب الجميل الذي أوقعتنا فيه؟ حادثة سيئة بلا شك.

كان بوارو في قمة دهشته ينظر إلى جاب بوجوم ثقيل وهو يتابع حديثه: لقد أخذنا الأمر على محمل الجد، **وإذا بذلك الشخص هو الخادم!**

صرخت بدهشة: الخادم؟

- نعم، إنه جيمس أو أيّاً كان اسمه، إنه يستطيع أن يمسك الرجل العجوز بأسنانه، وهو يستطيع أن يزوده بأشياء كثيرة عن الأربعة الكبار.

صرخت بتشنّج: مستحيل!

- لماذا لا تصدق؟ لقد اقتدنا الرجل المحترم إلى هاتون شيز، وهناك وجدنا ريلاند الحقيقي نائماً في سريره ومعه كبير

الخدم والطاهي والخادم الخاص، والله يعلم كم ربح كل واحد منهم في هذا الرهان؟

قال بوارو همساً: ربما يكون إذن هو السبب في بقائه في الظل.

نهض جاب وانصرف، وكان الجو مليئاً بالغموض والذهول. نظر كل منا إلى الآخر بصمت وقال بوارو: إننا نعرف -يا هيستنغز- أن آبي ريلاند هو رقم «٢»، والتنكر في دور الخادم كان هو الضمان الوحيد لخطة الرجعة في حالة الطوارئ، أما الخادم...

قلت وأنا ألتقط أنفاسي: نعم؟

ردّ بوارو بهدوء: إنه رقم «٤».

* * *

الفصل التاسع
لغز الياسمين الأصفر

أعقبت حادثةَ المحجر تلك فترةٌ هادئة، لكني كنت أشعر أننا لم نحقق القدر الواجب من النجاح والتقدم في ملاحقة الأربعة الكبار، فمنذ اتصالنا بهم ارتكبوا جريمتين وخطفوا هاليدي، وكانوا على شفا قتلي أنا وبوارو، ولم نستطع أن نسجل إلا نقطة واحدة في هذه اللعبة الخطيرة.

وحين صارحت بوارو بما في نفسي قال: هم يضحكون حتى هذا الوقت يا هيستنغز، هذا صحيح، لكنّ المثل الذي يقول: «المهم من يضحك أخيراً» يصدق فيهم، أليس كذلك؟ يجب أن تعلم أننا لا نواجه مجرماً سهلاً، بل نواجه أعظم أدمغة في الشرق والغرب.

لم أرغب في سماع هذه الإجابة، وكنت فقط أحاول استدراج بوارو من أجل الإفصاح عن بعض خطواته اللاحقة في تعقب الخصوم، لكنني فشلت لأنه قابلني بعادته المعروفة:

التكتم الشديد في كل ما يريد مستقبلاً، وتركني في جهل مطبق كما يحصل دائماً.

لقد ثارت لديّ شكوك حول اتصالات محتملة يجريها مع الاستخبارات السرية في الهند والصين وروسيا، وعرفت من صورة اندفاعه في تمجيد نفسه دائماً أنه كان يتقدم في لعبته المفضلة: اكتشاف عقلية عدوّه.

تخلى بوارو عن عمله الخاص كله ورفض عروضاً ضخمة، بل كان كثيراً ما يتخلى عن قضايا يشرع في التحقيق فيها بعدما يتبين له أنْ لا صلة لها بنشاط الأربعة الكبار.

الرابح الكبير من هذا الموقف كان المفتش جاب الذي اكتسب شهرة كبيرة لا نستطيع إنكارها من قدرته على حل كثير من المعضلات التي يعود الفضل في نجاحه فيها إلى تلميح بوارو الذكي. وفي المقابل كان جاب يمد بوارو بكثير من الأخبار اللازمة في قضاياه، وعندما عُيّن مسؤولاً في القضية التي سمّتها الصحف «لغز الياسمين الأصفر» طلب من بوارو أن يحضر لينظر فيها إن كان يهمه ذلك.

وعلى إثر هذه الرسالة وجدنا أنفسنا وحدنا في مقصورة قطار ينعطف بعيداً عن دخان لندن وغبارها متجهاً إلى بلدة ماركت هانْد فورد الصغيرة في مقاطعة وِرشِسْترشيَر حيث مكان اللغز.

سألني بوارو وهو يتّكئ على جدار المقصورة: ما قولك في المسألة يا هيستنغز؟

لم أسرع في الجواب، بل حاولت أن أكون حذراً وعمدت إلى كلمة أساسها العموم: كل شيء يبدو معقّداً.

فقال بمزاح: نعم، أليس كذلك؟

- اندفاعنا بهذه السرعة يشير إلى اعتقادك بأن وفاة السيد باينتر كانت نتيجة لجريمة قتل لا انتحاراً ولا حدثاً عابراً.

- لا، لا يا هيستنغز، أنت تسيء فهمي. هبْ أن هذا صحيح فلا بد من كشف كثير من المُلابسات والظروف الغامضة.

- هذا ما عنيته عندما قلت إن كل شيء يبدو معقداً.

- إذن دعنا نستعرض حقائق القصة بهدوء ومنهجية، أعد سردها عليّ يا هيستنغز بوضوح وترتيب.

بدأتُ أسرد أحداث القصة بنظام ومنهجية قدر استطاعتي: نبدأ بالسيد باينتر: رجل في الخامسة والخمسين، غني مثقف كثير الأسفار، لكنه ضاق في سنواته الأخيرة بالسفر فعمد إلى الاستقرار بعد أن اشترى بيتاً صغيراً في ورشِسْترشيَر قرب ماركت هاند فورد وأراد العكوف على الكتابة، لكنه أرسل إلى ابن أخيه الأصغر يشير عليه أن يأتي ليسكن معه في منزله «كروفت لاندز». وفرح ابن أخيه بهذا الرأي، وكان فناناً مفلساً، فعاش مع عمه نحو سبعة أشهر إلى أن حدثت المأساة.

قال بوارو بهمس: أسلوبك روائي جذاب كأنك تقرأ من كتاب.

حاولت أن أكمل القصة بحماسة وجِدّ متجاهلاً كلمة بوارو: وكان لدى باينتر طقم من ستة خدم في كروفت لاندز زيادة على خادمه الصيني الخاص آه لِنْغ.

همس بوارو مستغرقاً في التفكير: الخادم الخاص الصيني آه لِنْغ.

أكملت قائلاً: يوم الثلاثاء من الأسبوع الأخير اشتكى السيد باينتر ألماً معوياً بعد العشاء فأرسل أحد خدمه ليحضر الطبيب، وعندما حضر الطبيب استقبله السيد باينتر في مكتبه رافضاً أن يذهب إلى السرير. ولم يعرف أحد ما جرى بينهما من حديث، لكن الطبيب كوينتين طلب أن يرى مدبرة المنزل وذكر أنه أعطى السيد باينتر إبرة تحت الجلد لأن قلبه في ضعف شديد، وأوصى بأن لا يزعجه أحد، ثم بدأ بأسئلة كثيرة عن الخدم: متى عملوا هنا؟ ومن أين جاؤوا؟ إلخ.

أجابت مدبرة المنزل أسئلته قدر استطاعتها، وكانت تعتريها الحيرة والدهشة من مغزى هذه الأسئلة. وفي اليوم التالي حدث شيء مرعب؛ فبينما كانت إحدى الخادمات تتجول في أطراف المنزل إذ شمت رائحة لحم محترق مقززة، وحين بحثت عن مصدر الرائحة عرفت أنها من مكتب سيدها، فحاولت فتح الباب لكنها وجدته مقفلاً من الداخل، وبمساعدة جيرالد والرجل

الصيني تمّ اقتحام المكتب ليجد القوم أنفسهم أمام منظر رهيب: لقد سقط السيد باينتر في موقد الغاز وقد احترق رأسه ووجهه حتى ليكاد يستحيل التعرف إليه!

في تلك اللحظة لم يَقَعْ أيّ اشتباه، وإن لم يكن بدٌّ من لوم فأولى الناس باللوم هو الدكتور كوينتين الذي حقن مريضه مخدِّراً وتركه في هذه الحالة الخطيرة. ثم بعد ذلك تم كشف شيء يثير الفضول: كان على الأرض عند الكرسي الذي كان يجلس عليه الرجل العجوز صحيفة ملقاة يبدو أنها قد انزلقت عن ركبتيه وقد كتب عليها بخط يد كبير ضعيف بضع كلمات، ووُجد إصبع السبابة في اليد اليمنى للضحية ملطخاً بالحبر، ولا بد أن الضحية كان في حالة ضعف شديد فلم يَقْوَ على الإمساك بالقلم فعمد إلى سبابته يضعها في الحبر وكتب هاتين الكلمتين على سطح الصحيفة التي كانت بين يديه، والكلمتان واضحتان تماماً: «ياسمين أصفر».

وقد لوحظ أن جدار المنزل كان ينمو عليه الياسمين الأصفر، وهذا ما دعا إلى القول بأن رسالة الاحتضار ذات علاقة بهذا النبات، مما يوضح أن عقل العجوز كان يخرف، لكن الصحف جعلت من الحادثة قصة مثيرة وأسمتها «لغز الياسمين الأصفر»، وإن لم تَبْدُ مسألةً مهمة بالنسبة لي في الحقيقة.

قال بوارو: تقول إنها غير مهمة؟ حسناً، إذا كنت تظن أنها غير مهمة فهي كذلك.

نظرت إليه بارتياب شديد، فقد عودني على التهكم المرير، ولكني لم أقرأ السخرية في عينيه فأكملت الأحداث: وبعدها بدأت فصول تحقيق القضية والبحث فيها.

- أدرك أنك هنا بدأت تلعق شفتيك.

- كان هناك شعور كبير بأن المتهم هو الدكتور كوينتين أولاً؛ فهو لم يكن الطبيب المعتمد بل كان طبيباً طارئاً بدل الدكتور بوليثو الذي كان يقضي إجازة بعيداً. وهناك إحساس بأن الإهمال هو سبب المأساة الأول، لكن أقوال الطبيب كانت مختصرة ومثيرة؛ فقد كان السيد باينتر يشعر بوعكة صحية خفيفة منذ وصوله إلى كروفت لاند وأشرف على علاجه الدكتور بوليثو، وعندما رآه الدكتور كوينتين أول مرة كان متحيّراً تجاه بعض الأعراض، ولدى انفراده بالسيّد باينتر أطلعه على أمر غريب، فهو لم يكن يشعر بأي مرض على الإطلاق إلاّ أن طعم الكاري الذي أكله على العشاء كان في غاية الغرابة، لدرجة أنه اضطر - وقد استبدّ به الشك - إلى اختلاق بعض الأعذار ليصرف آه لنغ بضع دقائق تمكّن خلالها من سكب محتويات صحنه في القدر. وعلى الرغم من قوله أنه لم يشعر بالمرض فقد لاحظ الطبيب أن السيد باينتر كان يعاني من أثر الصدمة فقرّر إعطاءه إبرة سترايكنين.

وتوقفت عن سرد أحداث القصة قليلاً قبل أن أختتم معلّقاً: أعتقد أن في ذلك تمام القضيّة، ولا يبقى غير الإشارة إلى النقطة

الأساسية في الموضوع وهي أنّ الكاري الذي لم يؤكَل قد أُخضِع للتحليل فعُثر فيه على كمية من الأفيون تكفي لقتل رجلين.

وسكتّ، فسأل بوارو بهدوء: وما رأيك يا هيستنغز؟

- من الصعب القول إنه حادث، وكذلك محاولة سَمّه في الليلة السابقة ربما تكون مصادفة.

- لكنك لا تظن ذلك... إنك تعتقد أنها جريمة قتل.

- ألا تعتقد أنت ذلك أيضاً؟

- نحن -يا صديقي هيستنغز- نفكر بطريقة مختلفة؛ أنا لا أحاول أن أقرر أحد حلّين مختلفين: إما القتل أو القدر، سيأتي ذلك بعد أن نحلّ لغز الياسمين الأصفر. انظر هناك، شيء ما عند الكلمتين...

- تقصد الخطين اللذين عن اليمين؟ لا أظنهما مهمين.

- ربما هذا لك وحدك، دعنا ننتقل من لغز الياسمين الأصفر إلى لغز التوابل الهندية.

- السؤال: من الذي سممه؟ ولماذا؟ عندي مئة سؤال تحتاج جواباً، الذي أعد الطعام هو آه لنغ لكن لماذا يرغب في قتل سيده؟ هل هو عضو في جمعية سرية صينية ربما يكون اسمها جمعية الياسمين الأصفر؟ ثم هناك جيرالد باينتر.

هزّ بوارو رأسه وقال: نعم، جيرالد باينتر وريث عمه، ثم إنه أكل عشاءه خارجاً ذلك اليوم.

- ربما كان مطّلعاً على الأمر فحرص على أن يأكل عشاءه في الخارج لكي لا يأكل الوجبة.

شعرت بأن تفسيري أشغل بوارو فنظر إليّ نظرة احترام أكثر من قبل، وحاولت الاستمرار في نظريتي: ثم عاد متأخراً ورأى النور في مكتب عمه فعلم أن خطته فشلت فدفع الرجل العجوز في موقد الغاز.

- السيد باينتر كان في صحة جيدة وما كان يمكن أن يسمح بأن يُحرق حتى الموت دون أن يبدي مقاومة، هذا الرأي غير موفّق.

- أظن أننا اقتربنا من الحل، دعنا نسمع رأيك في المسألة.

انتفخ بوارو مغروراً وألقى نحوي ابتسامة ثم قال: هب أنها جريمة قتل، فإن السؤال هو: لماذا اختار القاتل هذه الطريقة ليقتله؟ ربما يكون الجواب: من أجل إخفاء الهوية. لقد احترق الوجه حتى لا يمكنك معرفته. فهل تكون جثّة رجل آخر؟ لكن الجواب الراجح هو النفي. ثم هناك أشياء أخرى تحتاج تحقيقاً وبحثاً، لكن يجب أن لا أسمح لهاجس الكبار الأربعة بأن يسيطر على عقلي، ومن الخطر أن يجعل الإنسان نفسه أسيراً لفكرة

واحدة، وقد تمعنت بالخطين المرسومين فوجدتهما بداية الرقم «٤».

علا صوتي بضحكة سخرية قائلاً: يا لك من عبقري يا بوارو!

- أليس ذلك سخيفاً؟ إنني أرى الأربعة الكبار في كل مكان. ها هو جاب قادم إلينا.

* * *

الفصل العاشر

تحقيق في «كروفت لاندز»

كان مفتش سكوتلانديارد واقفاً على الرصيف، وقد حيّانا بشدة عندما قدمنا إليه وبدت على محياه بسمة عريضة، ثم قال: حسناً يا سيد بوارو، لقد أيقنت أنك ستقحم نفسك في هذا اللغز المحير. إنه لغز من الطراز الأول، أليس كذلك؟

ثم انطلقت بنا سيارة جاب تنهب الأرض نحو كروفت لاندز.

كان البيت أبيض جميلاً تحيط به الأشجار والنباتات المتسلقة وفيها الياسمين الأصفر اللامع، وكنت أشعر بظلال من الكآبة تخيم على المنزل، وكان صمت الأشجار موحشاً والورود تتمايل بحزن كأنما ترثي صاحب المنزل. أما الياسمين الأصفر فكان يشد العيون؛ لأن اسمه كان عنوان اللغز... يبدو أن الرجل كان ذاهلاً حين كتب هذا، إنها كلمات لا معنى لها ولا تفيد شيئاً.

ابتسم بوارو وقال: ما الذي تراه يا سيد جاب؟ حادث أم جريمة؟

بدا المفتش مرتبكاً محرجاً أمام سؤال بوارو وقال: إذا نفينا أثر تلك التوابل الهندية ولم يثبت أنها هي السبب في الوفاة فإنني أميل إلى الرأي القائل بأنه حادث؛ لأني أستبعد أسلوب القتل بوضع رأس رجل حي في النار. ألا ترى أنه كان سيملأ البيت صراخاً؟

قال بوارو يحدث نفسه: آه، لقد كنت أحمق... أحمق ثلاث مرات. إنك أذكى مني يا جاب.

فوجئ جاب بهذا المديح، فقد كان بوارو دائماً يمدح نفسه ويسخر من غيره، واحمرّ وجه جاب وكانت شفتاه تتلعثم بكلمات غير مفهومة تشير إلى الريبة والشكوك في نفسه في صدق بوارو عند مدحه.

دخلنا المنزل متجهين عبر ردهاته إلى الغرفة التي حدثت فيها المأساة: مكتب السيد باينتر. وكانت غرفة واسعة جدرانها تنوء بحمل الرفوف الملأى بالكتب العتيقة.

نظر بوارو عبر النافذة إلى حديقة خلفية فيها حصباء، ثم سأل: هل كان مزلاج النافذة مفتوحاً؟

- يبدو أن القضية كلها هنا؛ لأن الطبيب حين خرج أغلق الباب خلفه، وفي صباح اليوم التالي وُجد مقفلاً من الداخل،

فمن الذي أقفله؟ هل هو السيد باينتر نفسه؟ آه لنغ أكد أن النافذة كانت مغلقة بالمزلاج، والدكتور كوينتين قال إنه كان يشك في أن النافذة كانت مغلقة لكن ليس بالمزلاج، لكنه لم يتأكد، ولو تأكد لأدّى ذلك إلى خلل خطير. فإذا كانت جريمةَ قتلٍ فلا بد أن يدخل القاتل من الباب أو النافذة، فإذا كان من الباب فإنه عمل داخلي، وإذا كان من النافذة فالأرجح أن الفاعل شخص من الخارج، وربما فتحوا النافذة على مصراعيها حين كسروا الباب، والخادمة التي فعلت ذلك تقول إن النافذة لم تكن مغلقة بالمزلاج، لكنها شاهدة سيئة جداً: لا تتذكر إلا ما يُطلب منها أن تتذكره!

- وماذا عن المفتاح؟

- وُجد على الأرض وسط حطام الباب، وقد يكون سقط من القفل عند الاقتحام، وربما أسقطه شخص ما حين دخل أو يكون قد دخل من تحت الباب من الخارج.

- يبدو أن كل شيء عندك «ربما»!

كان بوارو يبحث عن نقطة وسط الركام، وكان وجهه عابساً مقطباً لأنه لم يجد ما يريد، ثم قال: إنني أدور في ظلام دامس، كلما لمحت ومضة سرعان ما تنطفئ.

قال جاب بتجهّم: جيرالد الصغير لديه باعث قوي،

أستطيع أن أقول إنه ربما كان متوحشاً متهوراً، فالفنانون - كما تعرف - لا خلق لهم.

لم يُبْدِ بوارو اكتراثاً بهجوم جاب القاسي على الفنانين، لكنه ابتسم ابتسامة ذات مغزى كأنه عرف ما في نفس المفتش وقال له: يا جاب الطيّب، هل تظن أنك تستطيع أن تذرّ الرماد في عيني؟ أنا على يقين من أن أفكارك تتجه بالشك نحو الرجل الصيني، لكنك داهية، تريد أن أساعدك وأنت تخادعني.

انفجر جاب ضاحكاً: هكذا أنت دائماً يا سيد بوارو. نعم، أعترف أنني أراهن على الشاب الصيني فهو الذي عبث بالكاري، وإذا كان قد حاول التخلص منه فقد يحاول مرة أخرى.

- لكن السؤال هو: هل حاول ذلك حقاً؟

- الذي يؤرقني هو الباعث، لعله انتقام همجي لا سبب له.

- سؤال آخر: هل وجدتم أثر سرقة؟ هل اختفت أشياء ثمينة؟ جواهر، أموال، أوراق؟

- لا، أعني... **ليس تماماً**.

أصغيت بانتباه شديد، وكذلك بوارو. وأكمل جاب موضحاً: أقصد لم تحصل سرقة، لكن العجوز كان يكتب كتاباً ما، لقد عرفنا عنه هذا الصباح حين وصلت رسالة من الناشرين

يسألون عن المخطوطة. وحاولت البحث عنها بمساعدة باينتر الصغير فلم نجد شيئاً، ربما يكون قد خبأها في مكان ما.

لمعت عينا بوارو بالضوء الأخضر الذي كنت أعرفه جيداً وسأل: ماذا كان يُسمّى؟ أعني... هذا الكتاب؟

- أذكر أن اسمه كان: «اليد الخفية في الصين».

صفر بوارو وقد أخذته النشوة، ثم قال بسرعة: دعني أرَ الرجل الصيني آه لنغ.

أرسل جاب في طلب الصيني فجاء يجر قدميه متثاقلاً وضفيرته تتأرجح على ظهره. كان وجهه جامداً لا تلمح فيه أثر العاطفة، وخاطبه بوارو قائلاً: آه لنغ، هل أنت آسف لموت سيدك؟

أجاب بلغة إنكليزية ركيكة: طبعاً أنا آسف جداً، لقد كان رجلاً طيباً.

- هل تعرف من قتله؟

- لا، ولو كنت أعرف لأخبرت الشرطة.

استمرت الأسئلة والأجوبة والوجه الجامد هو هو لم يتغير، وتحدث آه لنغ عن الكاري الذي طبخه بنفسه، وأوضح أن الطاهي لم يكن له دخل بذلك ولم تلمسه أي يد إلا يده هو. وكنت أتساءل: هل كان يدرك أين سيقوده اعترافه؟ وقد أبدى

دهشته هو أيضاً من فتح النافذة، وأخيراً صرفه بوارو قائلاً: هذا يكفي يا آه لنغ.

ولكنه ناداه حين وصل إلى الباب: وهل تعرف شيئاً عن الياسمين الأصفر؟

- لا، وماذا يجب أن أعرف؟

- ولا عن الإشارة التي كُتبت هنا؟

سأله بوارو وهو يميل برأسه نحو الطاولة وقد لمحت عيناه شيئاً مكتوباً وسط الغبار المتراكم عليها، فقد كُتب بوضوح: رقم «٤».

أصاب الرجلَ الصيني رعبٌ تلمحه في وجهه كأنه أصيب برعشة كهربائية، ثم عاد جامداً مرة أخرى وتراجع وهو يكرر إنكاره الشديد.

وذهب جاب يبحث عن باينتر الصغير وتركنا وحدنا، فصرخ بوارو: الأربعة الكبار مرة أخرى يا هيستنغز. باينتر كان جوّالاً كثير السفر، وبلا ريب كانت لديه بعض المعلومات الخطيرة التي تخص الزعيم والعقل المدبر لمجموعة الأربعة الكبار لي شانغ ين.

- ولكن كيف؟ ومن؟

- صه، ها هم قادمون.

كان جيرالد باينتر شاباً لطيفاً ضعيف الجسم تزيّن وجهه لحية بينة لطيفة، وكان يلبس ربطة عنق غريبة، وقد أجاب عن أسئلة بوارو باستعداد تام.

أوضح قائلاً: أكلت العشاء في الخارج مع بعض جيراننا من بيت ويشرليز.

- متى عدت إلى البيت؟

- في نحو الساعة الحادية عشرة. معي مفتاح المزلاج، وجميع الخدم كانوا قد ذهبوا إلى النوم، وقد ظننت أن عمي نام أيضاً. أذكر أنني لمحت ذلك المتسول الصيني صاحب القدم الطرية آه لنغ وهو يتحرك بخفة حول زاوية القاعة، لكنني أظن أنني كنت مخطئاً.

- هل تذكر آخر مرة رأيت فيها عمك... أقصد قبل أن تأتي لتعيش عنده؟

- آه، لم أره منذ كنت طفلاً في العاشرة عندما تشاجر مع أبي.

- لكنه استطاع أن يجدك مرة أخرى ببعض الصعوبة، أليس كذلك؟

- بلى، وقد رأيت أنا إعلان المحامي في الجريدة عن طريق الحظ.

لم يسأله بوارو أسئلة أخرى، ثم انطلقنا نحو الطبيب كوينتين فكانت روايته هي نفسها دون أي إضافة تُذكر. قال: يا ليتني أستطيع أن أذكر شيئاً عن النافذة! لكن من الخطورة التفكير في الماضي؛ فقد يقنع المرء نفسه بوجود أشياء لم تكن موجودة قط. هذه ناحية نفسية، أليس كذلك يا سيد بوارو؟ لقد قرأت عن أساليبك وأنا معجب بك كثيراً. أستطيع أن أؤكد أن الرجل الصيني هو الذي وضع الأفيون في الطعام، ولكنه لن يعترف ولن نعرف نحن أبداً لماذا، لكن وضع رجل في النار لا يليق بشخصية رجلنا الصيني... هذا ما يبدو لي.

* * *

كان جاب يجري مراقبة حثيثة لكلا الشخصين منذ رؤية الجثة، وحاولت أنا أن أقدّم رأيي في بعض جوانب القضية فقلت: أظن أن جيرالد باينتر لا صلة له بالجريمة.

سخر بوارو وقال: أنت دائماً تعرف أكثر مما أعرف، وهذه هي المصيبة.

ضحكت قائلاً: أيها الثعلب العجوز، لن تتغير أبداً!

- حتى أكون أميناً يا صديقي فإن القضية أصبحت واضحة لديّ تماماً ما عدا الكلمتين: «الياسمين الأصفر»، وإني أظن أن هذين الشخصين لا يملكان قدرة على ارتكاب الجريمة معاً. عليك أن تقرر: مَن الذي يكذب.

كنا عندئذ نمشي في الطريق، وفجأة اندفع بوارو من جانبي إلى مكتبة مجاورة، ثم خرج منها بعد بضع دقائق وهو يحمل طرداً، وما لبث أن انضم إلينا جاب ومضينا نبحث عن مأوى في أحد الفنادق.

* * *

عندما استيقظت في صباح اليوم التالي كان الوقت متأخراً، ونزلت إلى غرفة الجلوس فوجدت بوارو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً بوجه عابس قلق، وحين رآني صاح وهو يلوح بيده: لا تتكلم معي، اصمت، حتى أتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام وأن الرجل قد اعتُقِل. إن من يكتب رسالة احتضار يجب أن يكتب شيئاً مهماً جداً: الياسمين الأصفر... هل تعني شيئاً؟ يجب أن يكون كذلك.

ثم أخرج كتاباً صغيراً وقال: وهذا الكتاب أخبرني... اسمع: «الياسمين الأصفر: مركّب جلْسَميني قلوي، سم فعّال مثل الكونين، الجلسميوم عقار مسكن فعّال للجهاز العصبي المركزي، فإذا أُخذت منه جرعات كبيرة تسبب الدوار وتضعف القوة العضلية، الموت يكون بسبب شلل مركز التنفس».

هل تذكر يا هيستنغز منذ البداية حين أبدى جاب ملاحظته في دفع رجل حي في النار؟ علمت بعدها أن الرجل الذي دُفع إلى النار **كان ميتاً**.

- لماذا؟ لماذا؟

- يا صديقي، إذا أردت أن تقتل رجلاً بالرصاص وطعنته بعد الموت أو ضربته على رأسه لكان واضحاً أن ذلك تم بعد الوفاة، لكن حين يحترق الرأس حتى يصبح رماداً فلا أحد يستطيع تبيّن سبب الوفاة الصحيح. والرجل الذي نجا من السم في أثناء العشاء لا يجوز أن يتم تسميمه بعد ذلك فوراً. مَن الذي يكذب؟ هذا هو السؤال... وقررت أن أصدّق آه لنغ.

- ماذا؟ هل جننت؟

- هل أنت ذاهل يا هيستنغز؟ آه لنغ يعرف بوجود الأربعة الكبار، كان هذا واضحاً، ولكنه لم يكن يعرف درجة ارتباط تلك الجريمة بهم حتى تلك اللحظة. لو كان هو القاتل إذن لاستطاع أن يظل جامداً بوجهه بصورة تامة، ولذلك قررت أن أصدقه وركزت شكوكي على جيرالد باينتر. لقد بدا لي أن رقم «٤» قد وجد أن التمثل بشخصية ابن الأخ المفقود منذ سنين سهل جداً.

- ماذا؟! رقم «٤»؟

- لا يا هيستنغز، حين قرأت مسألة الياسمين الأصفر وثبت الحقيقة أمام عيني في الحال.

- كما تفعل دائماً... إنها لا تثب أمام عيني أنا!

- لأنك لا تُعمِل خلاياك الرمادية. من الذي كانت له فرصة العبث بالكاري الهندي؟

- آه لنغ، لا أحد غيره.

- لا أحد غيره؟ وماذا عن الطبيب؟

- لقد كان هذا فيما بعد.

- فيما بعد، نعم، فعندما ثارت الشكوك في وجبة الكاري الهندي لم يأكل الرجل العجوز منها وحفظها ليعطيها طبيبه المعالج، وتم استدعاؤه في الحال. الدكتور كوينتين يصل ويتولى أمر الكاري ثم يعطي مريضه حقنة من الستركنين، وفي الحقيقة هي من الياسمين الأصفر، وحين يبدأ فعل الدواء بالسريان يغادر بعد فتح مزلاج النافذة، ثم يعود عن طريق النافذة فيجد المخطوطة ويدفع السيد باينتر في النار.

لكنه لم يلتفت إلى الصحيفة التي سقطت على الأرض من بين يدي الضحية. لقد عرف باينتر أيّ دواء أُعطيَ له وجاهد لكي يتهم الأربعة الكبار بقتله. من السهل على الدكتور كوينتين أن يخلط الأفيون بالكاري ويقدمه للفحص، وفي أثناء روايته يذكر مسألة الستركنين عرضاً حتى إذا ما تم كشف موضع الإبرة تحت الجلد يكون السبب معروفاً سابقاً، وفي الحال ينقسم الاشتباه بين كونه حادثاً وكونه ذنب الرجل الصيني آه لنغ بسبب الكاري الهندي.

- لكن هل يجوز أن يكون الدكتور كوينتين هو رقم «٤»؟

- نعم يجوز، بلا شك يوجد طبيب حقيقي اسمه كوينتين، وربما يكون في مكان ما في الخارج. لقد تنكر رقم «٤» بشخصيته ببساطة، والتنسيق الذي تم مع الدكتور بوليثو من أجل العمل طيلة فترة الإجازة تم تنفيذه كله عن طريق المراسلة.

في تلك اللحظة دخل جاب محمرّ الوجه، وصرخ بوارو: هل أمسكت الرجل؟

- لا، لقد عاد بوليثو من إجازته هذا الصباح وتبيّن أنه استُدعي ببرقية لا أحد يدري من أرسلها... الرجل الآخر غادر الليلة الماضية لكننا سنمسك به.

هزّ بوارو رأسه باستخفاف وحزن وهو يقول: لا أظن ذلك.

ثم رسم بيده رقم ٤ على الطاولة بخط كبير بطريقة لاشعورية.

* * *

الفصل الحادي عشر
مشكلة شطرنج

في إحدى الأمسيات الهادئة كنت مع بوارو نأكل عشاءنا في مطعم صغير في سوهو عندما انضم إلينا المفتش جاب فجأة، وكان لقاء ودياً حاراً، فقد مضى وقت طويل لم نلتقِ به، منذ مسألة الياسمين الأصفر قبل نحو شهر.

قال بوارو موبّخاً: ما هذه الجفوة يا جاب؟ لقد مضت فترة طويلة دون أن نراك أو نسمع عنك شيئاً؟

- لقد كنت في منطقة الشمال طوال الفترة المنصرمة. ما أخبار الأربعة الكبار؟ ما زالوا يزدادون قوة، أليس كذلك؟

- أدرك أنك تحاول السخرية يا عزيزي جاب، لكن الأربعة الكبار موجودون.

- آه، لا أشك في ذلك، لكنهم ليسوا محور الكون كما تزعم.

- أنت مخطئ يا عزيزي؛ إنني أظن أن أعظم قوة للشيطان في العالم اليوم هي الأربعة الكبار. إلى أي نهاية يسيرون وماذا يخططون؟ لا أحد يعلم، ولكن لا توجد منظمة إجرامية تضاهي هذه المنظمة، على رأسها أذكى دماغ في الشرق ومليونير أمريكي وعالمة فرنسية، أما الرابع...

تداركه جاب: أعرف ذلك، أعرفه جيداً؛ لقد أصبح هاجسك الذي لا يفارقك يا سيد بوارو. دعنا نتحدث في شيء آخر، هل تهتم بالشطرنج؟

- لقد لعبته مرات معدودة، نعم.

- هل رأيت ذلك الحدث أمس؟ مباراة بين أشهر لاعبَين في العالم تنتهي نهاية محزنة مثيرة: لقد مات أحدهما في أثناء اللعبة.

- قرأت الخبر في الصحيفة: البطل الروسي كان أحد اللاعبَين، أما الآخر صاحب الحظ السيئ فهو الأمريكي جيلمور ويلسون.

- تماماً، سافرونوف هزم روبستين وتربع على عرش بطولة روسيا قبل بضع سنوات، وأصبح ويلسون بطلاً ثانياً.

- إنها قضية مثيرة حقاً، لكنْ يبدو أن لك اهتماماً خاصاً بهذا.

ضحك جاب مرتبكاً من ذكاء بوارو.

- أصبت يا سيد بوارو؛ إنني أغرق في حيرة شديدة حقاً. ويلسون كان سليماً معافى ليست فيه علامة من علامات مرض القلب، لذا فإن وفاته لا يجوز تفسيرها بهذه السهولة.

قلت معلقاً: هل تظن أن سافرونوف قد أبعده عن الطريق؟

لم يكترث كثيراً لسؤالي وقال: ربما، لكني لا أظن أن اللاعب الروسي يمكن أن يقتل رجلاً من أجل أن لا يُهزَم في لعبة شطرنج.

بوارو: إذن ما هي فكرتك باختصار؟ من الذي سمم ويلسون ولماذا؟ أنت تشك قطعاً بالسم.

- توقف القلب فجأة يعني أنه توقف عن الخفقان، هكذا يقول الطبيب، لكن تأويل الحدث لا يرضي أحداً حتى الطبيب نفسه.

- متى تُشرَّح الجثة؟

- الليلة. ربما سنكشف بعض الأسرار، لقد كانت وفاة ويلسون مفاجأة غير عادية إذْ بدا طوال الوقت طبيعياً، ثم سقط فجأة وهو يأخذ حجراً ليحركه.

اعترضه بوارو: هناك أنواع قليلة جداً من السموم يمكن أن تعمل بهذه الطريقة.

- هذا صحيح، هذا ما سيكشفه التشريح. لكن من الذي يريد إبعاد ويلسون عن الطريق؟ إنه رجل مسكين ومتواضع ولطيف، لقد جاء هنا للتوّ من الولايات المتحدة ولا أظن أن له في العالم أعداء.

- أظنك تحوم حول فكرة معينة.

- فكرة تسيطر عليّ: إن السم لم يُقصَد به ويلسون، بل الرجل الآخر.

- سافرونوف؟

- نعم، فهناك خصومة عنيدة وقديمة بينه وبين البلشفيين منذ اندلاع الثورة، وقد أشيع أنه قُتل لكنه - في الحقيقة - نُفِيَ إلى سيبيريا ثلاث سنوات في ظروف قاسية يصعب تصديقها، حتى تغيرت أحواله وتبدلت أوصافه فابيَضّ شعره وتهدل منكباه. وعندما هرب أخيراً ولجأ إلى إنكلترا صعُبَ حتى على أصدقائه القدامى أن يتعرّفوا عليه، وهو منذ ذلك الحين لا يغادر بيته إلا قليلاً وقد آثر اعتزال الناس مع بنت أخيه سونيا وخادم روسي في شقة متوارية على طريق ويستمنستر، كأنه ما زال مرعوباً يلاحقه الخوف من خصومه الأقدمين. وهذا سبب رفضه المتكرر للمباراة التي ألحّ عليه ويلسون لخوضها متحدياً، ولولا الحملة الصحفية المثيرة التي فسرت الرفض بأنه منافاة للروح الرياضية لما استسلم سافرونوف بهذه السهولة. إنني مقتنع بأن ويلسون قُتل خطأ.

- ألا ينتفع شخص بموت سافرونوف؟

- حسناً، ابنة أخيه وارثه الوحيد، لقد حصل مؤخراً على ثروة ضخمة تركتها له السيدة جوسبوجا التي كانت زوجة لتاجر سكّر كبير في ظل النظام القديم، ويبدو أن علاقة ما كانت قائمة بينها وبين سافرونوف.

قال بوارو: أين حدثت المباراة؟

- في بيت سافرونوف الخاص؛ لأنه كان مريضاً كما قلت لك.

- وهل شاهدها عدد كبير من الناس؟

- اثنا عشر شخصاً على الأقل.

هزّ بوارو رأسه بحركة معبّرة ثم قال: كم أنت مسكين يا جاب! إن عملك صعب جداً.

- إذا تأكد لدي أن السم كان هو السبب فأستطيع أن أقول إنني سأنجح.

- على ضوء افتراضك بأن سافرونوف هو المقصود، هل خطر لك أن القاتل سيحاول مرة أخرى؟

- قطعاً يا سيد بوارو، لذلك وضعت رجلين يراقبان بيت سافرونوف دوماً.

قال بوارو بنبرة فيها معنى الاستخفاف: هذا سيكون مفيداً لو أن الزائر يحمل قنبلة تحت إبطه.

- أظن أنك أصبحت مهتماً بالقضية، ما رأيك أن تذهب معي إلى المشرحة لمشاهدة جثة ويلسون قبل البدء بتشريحها فربّما ظهر لك دليل ما.

وافق بوارو، وقد بدا لي أنه أصبح مأسوراً تماماً بالقضية الجديدة، فقد مضى وقت طويل دون أن يهتم بقضية بعيدة الصلة بالأربعة الكبار ونشاطهم، ولقد شعرت بالسرور لرؤية بوارو يرجع تدريجياً لنشاطه الأول.

* * *

حين نظرنا إلى الجسد المسجّى لم نلحظ أي أثر غريب ما عدا الندبة التي ظهرت على أصابع يده اليسرى، وقد أوضح الطبيب أنه حَرق وليس جرحاً.

انتقل بوارو إلى الاهتمام بمحتوى جيوبه وقد نثرها أمامنا أحد رجال الشرطة، ولم يكن فيها سوى منديل ومفاتيح ودفتر ملاحظات وبعض الرسائل غير المهمة، لكنه وجد شيئاً بسيطاً أثاره؛ فقد أمسك باثنين من حجارة الشطرنج وصاح منفعلاً: بيدق وفيل... هل كان هذان في جيبه؟

- لا، بل كان يمسك بهما بيده، وبصعوبة بالغة تم إخراجهما من بين أصابعه المتشنجة عليهما تشنجاً قوياً. يجب

إرجاعهما إلى الدكتور سافرونوف، فهما جزء من طقم جميل منحوت من العاج.

- اسمح لي أن أعيدهما أنا إلى السيد سافرونوف، ولعل ذلك يكون عذراً لكي أزوره.

صرخ جاب مستبشراً: إذن تريد الغرق في لجة هذه القضية كما أرى؟

- نعم، لقد طاب لي البحث في هذه المعضلة، لقد استطعت إثارة اهتمامي يا سيد جاب.

ثم عاد بوارو متجهاً إلى الجثة وسأل: هل لك أن تعلمني أكثر عن الضحية؟

- لا أظن، لم يبقَ شيء.

- ولا حتى أنه أعسر؟

- أنت ساحر يا بوارو، كيف عرفت؟ لقد كان أعسر حقاً، وهل لهذا صلة بالحادث؟

- ربما لم يكن لهذا الأمر بالحادث أي علاقة.

* * *

في صباح اليوم التالي كنا نشق طريقنا إلى شقة سافرونوف في ويستمنستر، وقلت متأملاً: سونيا دافيلوف، إنه اسم رائع.

سمع بوارو حديثي، فألقى عليّ نظرة يائسة ثم قال: أنت هكذا دائماً، رومانسي تماماً، لكن حظك سيكون سعيداً إذا ظهر أن سونيا دافيلوف هي صاحبتنا الكونتيسة فيرا روساكوف.

حين سمعت الاسم أصابتني هزة عنيفة واكفهرّ وجهي وأعادتني الذاكرة إلى أشد فترات الحرج في حياتي، لكن بوارو تدارك بسرعة: لا، لا يا هيستنغز، إنما هي نكتة... لا أظن أن أصابع الأربعة الكبار وصلت إلى هنا.

فتح البابَ خادمٌ ذو وجه متجهم كأنما نُحت من خشب لا انفعال فيه ولا يكاد يبدي استجابة لأي مؤثر. وقدّم بوارو بطاقة كتب عليها جاب بضع كلمات تعريفية، وبعدها تم إدخالنا إلى غرفة المجلس.

كانت غرفة واسعة منخفضة السقف، على جدرانها ستائر فخمة وتملأ زواياها تحفٌ ثمينة، وكانت الأرض مفروشة بالسجاد الفارسي الرائع.

اتجهتُ نحو إحدى التحف أتفحصها، وقد كانت ذات قيمة عالية. وحين التفتُّ نحو بوارو لأحدثه وجدته منبطحاً على الأرض وأصابعه تعبث بسجادة فارسية وعيناه تمعنان النظر باهتمام بالغ، فخطر لي أن السجادة الجميلة تلفت النظر حتى تحوز هذا الاهتمام فقلت: هل هي قطعة نادرة؟

- السجادة؟ إنها قطعة رائعة ولكني أبحث عن شيء آخر...

إبرة كبيرة أُدخِلت عمداً في وسطها. الإبرة ليست هنا الآن لكن الثقب الذي أحدثته واضح جداً.

صوت امرأة من خلفنا جعلني أدور بسرعة نحوها بينما قفز بوارو على قدميه برشاقة، كانت هي تقف في مدخل الغرفة وعيناها علينا، وكانت متوسطة الطول ذات شعر أسود قصير، ويبدو أنها لا تتقن الإنكليزية تماماً.

قالت: عمي مريض وأخشى أنه لن يستطيع مقابلتكم.

- هذا مؤسف. هل تتلطفين بإجابتنا عن بعض الأسئلة؟ أنت الآنسة دافيلوف، أليس كذلك؟

- بلى، أنا سونيا دافيلوف، ما الذي تريد معرفته؟

- إنني أتابع التحقيق في الحادث المحزن الذي أدى إلى وفاة السيد ويلسون، هلاّ أخبرتنا عن الحادث؟

- لقد مات بسبب توقف قلبه في أثناء اللعب في المباراة.

- هيئة التحقيق غير متأكدة من هذا السبب كما يبدو يا آنسة.

ارتعدت الفتاة وبدرتْ منها حركة تنبئ برعبها وصرخت: إذن لقد كان إيفان محقاً. إنها الحقيقة، يا إلهي!

- من هو إيفان؟ وما هي الحقيقة؟

- إيفان هو الذي فتح لكما الباب. لقد أخبرني أن جيلمور لم يمت موتاً طبيعياً، بل مات مسموماً، ولم يكن هو المقصود.

- لم يكن هو المقصود؟

- أجل، كان المقصود **هو عمي**.

- لكن من الذي يريد سمّ عمك يا آنسة؟

- لا أعرف، إنني أعيش في الظلام وعمي لا يثق بي، وربما يكون هذا طبيعياً لأنه لم يرني إلا وأنا طفلة صغيرة، وقد جئت الآن لأعيش معه في لندن، وكل ما أعرفه أنه يعيش في رعب دائم. إنه يخاف شيئاً ما، إن روسيا ملأى بالجمعيات السرية وقد سمعت إحدى مكالماته.

ومالت برأسها نحو بوارو وهمست: هل سمعتَ شيئاً عن جمعية تسمى «الأربعة الكبار»؟

جحظت عينا بوارو وارتجف من هول المفاجأة وهتف: ماذا؟ هل تعرفين الأربعة الكبار يا آنسة؟

- إذن فهي جمعية موجودة؟ لقد سمعت إشارة عنها وسألت عمي بعد ذلك فلم أَرَ رجلاً خائفاً مثله؛ فقد شحب لونه وارتجف عندما سمع هذا الاسم، لقد كان يخاف منهم خوفاً عظيماً، أنا متأكدة من ذلك. لا بدّ أن ويلسون قُتل خطأ.

همس بوارو: الأربعة الكبار، دائماً الأربعة الكبار... إنها مصادفة مذهلة حقاً! إن عمك ما زال في خطر ويجب أن أنقذه. أعيدي عليّ الآن سرد أحداث الواقعة: رقعة الشطرنج وكيف كان يجلس الرجلان وأين؟ أريني كل شيء.

اتجهتْ إلى جانب من الغرفة وأحضرت طاولة صغيرة بدا سطحها رائعاً مرصّعاً بمربعات من الفضة واللون الأسود على هيئة رقعة الشطرنج، وقالت: أُرسِلَت هذه الطاولة إلى عمي هديةً قبل بضعة أسابيع مع رجاء حثيث أن يستعملها في المباراة القادمة التي كان سيلعبها، وكانت في وسط الغرفة هكذا.

تفحص بوارو رقعة الشطرنج بصورة مبالَغة: من الأطراف إلى الأسفل، ورأيت في ذلك بعض المبالغة.

لم يسألها أي سؤال من الأسئلة التي كنت أشعر بأهميتها في التحقيق، وشعرت أن أسئلته عديمة الجدوى ولا مغزى لها، وأيقنت أن ذكر اسم الأربعة الكبار قد جعله يفقد توازنه العقلي.

ثم طلب أحجار الشطرنج وأخذ يتفحصها بطريقة آليّة، ثم همس وهو شارد الذهن: طقم رائع حقاً.

لم يسألها عن المشروبات التي قُدّمت ولا عن الأطعمة ولا سأل عن الأشخاص الحاضرين، وتنحنحت بتكلف وأنا أسأله: ألا تظن يا بوارو هذه المرة...؟

تداركني بوارو بعجرفة قائلاً وهو يشير بيده نحوي: لا تظنّ يا صديقي واترك الاستنتاجات لي. يا آنسة، هل يستحيل تماماً رؤية عمك ولو بضع دقائق؟

ابتسمت بسمة باهتة ثم قالت: إنه سيراك، نعم. إن دوري أن أقابل جميع الغرباء أولاً قبل المقابلة لأسباب أنت تعلمها.

واختفت في الغرفة المجاورة لبعض الوقت ونحن نسمع صوت الهمس، ثم عادت لتقودنا إلى سافرونوف.

كان رجلاً مهيباً يستلقي على أريكته، طويلاً هزيلاً ذا حواجب كثة متهدلة على عينيه ولحية بيضاء ووجه بدت عليه علامات الضنك والقسوة التي خلّفها الزمان، وكان رأسه طويلاً. إنه لاعب شطرنج عظيم، فلا بد أن له دماغاً واسعاً يملأ هذا الرأس الضخم.

انحنى بوارو له ثم قال: سيدي، هل لي أن أتحدث إليك قليلاً على انفراد؟

التفت نحو ابنة أخيه قائلاً: اتركينا قليلاً يا سونيا.

قال بوارو بعد انصراف الفتاة: دكتور سافرونوف، لقد حصلتَ أخيراً على ثروة ضخمة فمن سيرثك؟

- لقد كتبت وصية أترك فيها كل شيء لابنة أخي سونيا.

- لكنك لم تَرَها منذ فترة طويلة، منذ أن كانت طفلة، وأظن أنه من السهل أن تنتحل أيُّ فتاة هذه الشخصية.

فوجئ سافرونوف بهذا الرأي ولكنه لم يعلّق، فقال بوارو مواصلاً: يكفي أن أعطيكَ إشارة تحذير فقط، هذا ما أريد. لكن هل لك أن تصف لعبة الشطرنج في ذلك المساء؟

- كيف تريد أن أصفها لك؟

- حسناً، أنا لا ألعب الشطرنج لكنني أفهم أن هناك عدة طرق معتادة للبدء أو الافتتاح كما تسمونها.

ابتسم سافرونوف ابتسامة خفيفة: آه، نعم. ابتدأ ويلسون بطريقة لوبيز، إحدى أسلم البدايات التي يستخدمها اللاعبون بصورة متكررة في المباريات.

- كم مضى على اللعبة عندما حدثت المأساة؟

- لقد حدث ما حدث بعد النقلة الثالثة أو الرابعة، عندما وقع ويلسون فوق الطاولة بشكل مفاجئ.

نهض بوارو لكي يغادر وسأل بغير اكتراث: هل أكل أو شرب شيئاً؟

- بعض الصودا، على ما أعتقد.

تريث بوارو على عتبة البيت وهو يهم بالخروج ثم سأل: هل تعرف من يسكن تحتك؟

- السيد تشارلز كينغويل عضو البرلمان، لقد استأجر الشقة مفروشة مؤخراً.

- أشكرك يا دكتور.

* * *

دلفنا إلى الشارع وقد أطلّتْ علينا شمس الشتاء من بين الغيوم بوهج بارد فانفجرت في بوارو: حسناً، في الحقيقة - يا بوارو - لا أظن أنك أبليت بلاء حسناً هذه المرة، وقد ظهر لي أن أسئلتك كانت غير مناسبة.

- هل تعتقد ذلك يا هيستنغز؟ ماذا كنتَ أنت ستسأل؟

حاولت أن أفكر بصياغة سؤال، وأوضحت لبوارو وهو ينصت إليّ باهتمام مريب حتى وصولنا إلى البيت تقريباً حيث علّق ببرود: سؤال بارع جداً لكنه غير لازم.

صحت به: غير لازم، وهل...؟

فتح الباب ودلف إلى الغرفة والتقط رسالة كانت على الأرض.

- إنها من جاب كما توقعت. رسالة مختصرة تفيد بأنه لم

يجد آثار السم... وهكذا ترى أن أسئلتك التي وددتَ لو طرحتها لا لزوم لها.

- هل خمّنت هذه النتيجة من قبل؟

- عندما تعمل بنجاح لا يسمى هذا تخميناً.

- هل تريد أن نتجادل في أمور تافهة؟ هل تنبأت بهذا؟

- نعم.

- لماذا؟

أخذ بوارو حجر الفيل الأبيض من جيبه ثم رفعه بين أصابعه، فصرخت فيه منفعلاً: لِمَ لَمْ تُعده إلى الدكتور سافرونوف؟

- أنت مخطئ في ظنك يا صديقي. ذلك الفيل ما زال في جيبي الأيسر، أما هذا فهو فيل اللعبة الآخر، وقد أخذته من علبة الأحجار وأنا أتفحّصها.

حتى الآن لم أفهم حركات بوارو تلك، وسألته متحيّراً: ولكن لماذا أخذت الحجر الآخر؟

- قطعاً من أجل أن أقارن بينهما. إنهما يبدوان متشابهين تماماً، ولكن يجب عدم التسرّع بالاستنتاج. عليّ بميزاني الصغير لو سمحت.

وبعد أن وزن الفيلين بعناية التفت إليّ ووجهه يشعّ بفرحة الظّفر: نعم، نعم، هذا صحيح؛ من المستحيل خداع هيركيول بوارو!

ثم أسرع نحو الهاتف: هل هذا هو جاب؟ هيركيول بوارو يتكلم، راقب الخادم إيفان ولا تدعه يهرب، احذر أن يفلت من يديك مهما كان الثمن... كما أقول لك...

ثم التفت إليّ قائلاً: حتى الآن أراك لم تفهم الحقيقة يا هيستنغز. انتبه، سأشرح لك: إن ويلسون لم يُقتَل بالسم، بل قُتل بالصعقة الكهربائية. خيط معدني رفيع يمر في منتصف هذا الحجر، وقد أُعِدّت الطاولة من قبل ووضعت بعناية فوق مكان ما على الأرض، وعندما وضع الفيل فوق إحدى المربعات الفضية انتقل التيار الكهربائي إلى جسم ويلسون فقتله على الفور. لقد كانت الطاولة الخاصة مُعَدّة لهذا الغرض بعناية. الطاولة التي تفحصتها كانت نسخة أخرى مشابهة، لقد استُبدلت، لكن بقي الحرق هو العلامة الوحيدة على يد ويلسون اليسرى... ألا تذكر أنه كان أعسر؟

الأمر تم في البيت الأسفل، لكن أحد الشركاء -على الأقل- كان في بيت سافرونوف. الفتاة جندي للأربعة الكبار وهي تعمل لكي ترث أموال سافرونوف.

- وإيفان؟

- أشك بقوة في أن إيفان ما هو إلا رقم «٤» الشهير. إنه شخصية تقدر أن تمثل أي دور ببراعة وسهولة.

تذكرت أدواره السابقة: حارس في المصحة العقلية، الجزار، الطبيب اللطيف... كلهم رجل واحد لكن لا يشبه أحدهم الآخر. ثم قلت في النهاية: إن ذلك مذهل! كل شيء كان معَدّاً، ولعلّ سافرونوف أحسّ بالخطر مما دفعه إلى التهرّب من المباراة.

نظر بوارو إليّ نظرة عميقة، ثم أخذ يجوب الغرفة ذهاباً وإياباً، وفجأة التفت نحوي وسألني: هل لديك كتاب عن الشطرنج يا صديقي؟

حاولت أن أبحث له عن الكتاب، وبعد أو وجدته سلمته له فأمسك به وغاص في كرسيه الضخم يقرأه.

بعد نحو ربع ساعة رنّ الهاتف، وكانت مكالمة من جاب الذي قال: لقد غادر إيفان الشقة وهو يحمل رزمة كبيرة، قفز إلى سيارة تنتظره وبدأت المطاردة، وكان يحاول تضليل متعقبيه، وفي النهاية عندما ظن أنه نجح سار بسيارته نحو بيت كبير في هامستيد. وقال جاب إن الشرطة يحاصرون البيت.

سردت المكالمة على مسمع بوارو فحدّق إليّ ذاهلاً مما جرى، ثم فتح الكتاب عند طريقة لوبيز في الافتتاح وقال:

انظر... لقد كانت النقلة الثالثة إلى المربع الأبيض هي التي قتلت جيلمور ويلسون، هل ينبئك هذا بشيء يا هيستنغز؟

لم أفهم مراد بوارو فصمَتُّ حائراً، وانطلق هو شارحاً نظريته: توجد دائماً طريقتان للنظر إلى الأمور. افترضْ يا هيستنغز أنك سمعت - وأنت جالسٌ على هذا الكرسي - صوت الباب الأمامي وقد فُتح وأُغلق، فماذا تستنتج؟

- لا بدّ أن شخصاً قد خرج... هذا ما سيتبادر إلى ذهني.

- هذا أحد الاحتمالين فقط، والاحتمال الآخر ليس أقلّ شأناً: ربما كان ذلك الشخص قد دخل. أرأيت: على نفس المقدمة بُني استنتاجان يناقض أحدهما الآخر! ولكنك إذا سرت في الاتجاه الخاطئ فلا بدّ أن يظهر لك تناقضٌ ما يدلك على أنك في الطريق غير الصحيح.

قلت: وماذا يعني كل ذلك يا بوارو؟

قفز بوارو على قدميه فجأة ثم صرخ بعنف: هذا يعني أنني كنت غبياً ثلاث مرات! أسرع، أسرع إلى شقة سافرونوف لعلنا نصل في الوقت المناسب.

انطلقت بنا سيارة أجرة مسرعة، ولم يُجِب بوارو على أسئلتي الكثيرة. صعدنا الدرج مسرعَين، ولم نلقَ جواباً على قرع الجرس وطرق الباب مراراً، وعندما ألقينا السمع سمعنا صوت أنين مكتوم ينبعث من الداخل.

كان حارس العمارة يملك مفتاحاً، وبصعوبة أقنعناه بفتح الباب. ودخلنا مسرعَين فإذا رائحة الكلوروفوم، ووجدنا سونيا دافيلوف مكمّمة ومقيدة وحشوةٌ قطنيةٌ مشبعة بالكلور تسد أنفها.

أسرع بوارو لينقذها واتصل بالطبيب الذي وصل بسرعة وتولى العناية بها، ثم جرى تفتيش الشقة فلم نجد الدكتور سافرونوف. فقلت: ما معنى هذا؟

- هذا يعني أننا ظننا الظن الخاطئ منذ البداية؛ لقد كنّا أمام استنتاجين متساويين فاخترنا الاستنتاج الخاطئ. ألا تذكر استنتاجك بشأن الباب الذي فُتح وأُغلق؟ كان يمكن لأي واحدة أن تنتحل شخصية سونيا دافيلوف لأن عمها لم يَرَها منذ سنوات طويلة.

- نعم؟ وماذا في ذلك؟

- حسناً، والعكس أيضاً صحيح: **أيضاً يمكن لأيّ واحد أن ينتحل شخصية العم.**

- ماذا؟!

- لقد مات سافرونوف فعلاً عند اندلاع الثورة، أما الرجل الذي زعم أنه تحمل المشاق وهرب، الرجل الذي «تغيّر كثيراً حتى فشل أصدقاؤه في التعرّف عليه»، الرجل الذي زعم أنه حصل على ثروة ضخمة...

- من كان هذا الرجل؟

- رقم «٤». لقد كان خائفاً عندما أخبَرَتْه سونيا أنها استمعت إلى إحدى مكالماته! مرة أخرى استطاع الانزلاق من بين أصابعي. لقد أيقن أنني سأسير في الطريق الصحيح في النهاية، وقد استطاع تحويل السندات ورقاً نقدياً ثم فرّ بها بعد أن قام بمحاولة حبس سونيا دافيلوف وبعد أن أرسل إيفان الأمين في مطاردة تصرف عنه الانتباه.

- لكن من الذي حاول قتله؟

- لا أحد؛ فويلسون كان الضحية المقصودة منذ البداية. رقم «٤» لم يكن يعرف اللعبة، ومن أجل هذا كان يرفض المباراة، وقد حاول جاهداً الإفلات منها، وحين فشل وضع نهاية مأساوية لويلسون المسكين. ويلسون كان مولعاً بطريقة لوبيز، ولذلك خطط رقم «٤» لموته في الحركة الثالثة قبل أن يتورط في أي صعوبات دفاعية.

حاولت أن أناقش بوارو بصلابة وحزم: ولكن ألا توجد طريقة لتجنب المباراة دون اللجوء إلى القتل، كأن يزعم أن الطبيب منعه من اللعب مثلاً؟

- بلى يا هيستنغز؛ لديه طرق أسهل، لكنك لا تفكر بعقل رقم «٤»، المدمر الذي لا يحرص على أن يتجنب إزهاق الأرواح، بل كل ما يشغله أن يمثل دور اللاعب الكبير، فليس

غريباً أنه قد حاول مراقبة اللاعبين وزار عدة مباريات ليقلد الجلسة وتقطيبة الحركات الاستعراضية، وهو في نفسه يضحك لأنه لم يكن يتقن غير حركتين أو ثلاث حركات... هذه هي نفسية رقم «٤» وهذا هو أسلوب تفكيره.

هززت رأسي استهجاناً وقلت: حسناً، أعتقد أنك محق، لكني لا أفهم كيف يغامر شخص هذه المغامرة ويخاطر بحياته في حين يستطيع تحقيق ما يريد بطريقة أسهل.

ضحك بوارو ضحكة خفيفة وهو يقول: وأين تكمن المخاطرة؟ هل كان يمكن لجاب أن يحل اللغز؟ رقم «٤» يثق بنفسه ولا يتعرض للمخاطرة إلا في حال أن يخطئ خطأ حقيراً.

- وما هو الخطر الحقير؟

- لقد غفل -يا صاحبي- عن الخلايا الرمادية، خلايا هيركيول بوارو.

هززت رأسي وناجيت نفسي: بوارو ذو مناقب حسنة كثيرة، لكن التواضع ليس واحداً منها.

* * *

الفصل الثاني عشر

المصيدة

كان الضباب يلف لندن في يوم شتاء قارس من أيام شهر كانون الثاني (يناير) عندما كنا نجلس متقاربَين عند الموقد، وكنت أحس أن بوارو يرمقني بنظرات متتابعة وعلى شفتيه بسمة ساخرة، حاولت جاهداً أن أفهمها فلم أستطع فخاطبته قائلاً: أرجو أن تزداد ثقة بقدراتي يا سيد بوارو.

- لا عليك، إنما كنت أرجع ذاكرتي إلى الماضي قليلاً حين قدمتَ إليّ في منتصف الصيف الماضي، وقد أخبرتني يومئذ أنك تود قضاء إجازتك معي وهي شهران على أبعد حد.

- لكني لا أذكر إن كنتُ ذكرت مدة معينة.

- لقد ذكرتَ ذلك حقاً يا صديقي، فلماذا غيرتَ خطتك؟

- هذا صحيح، لكن هل خطر ببالك أنني سأدع صديقي بوارو

يصارع هذا الأُخطبوط العملاق، الأربعة الكبار، وأمضي؟

- هذا ما ظننتُه، وقد أنست بصحبتك الكريمة، لكن ماذا ستقول زوجتك السندريلا الصغيرة كما يحلو لك تسميتها؟

- هي لا تدرك ما يجري هنا، لكنها تفهم دوري ولن تقبل أن أدير ظهري لصديق.

- نعم، أعلم هذا؛ إنها زوجة وفية، لكن رحلتنا رحلة طويلة يا صاحبي.

هززت رأسي وأنا أشعر ببعض الإحباط ويكاد اليأس يسري في أعماقي رويداً رويداً، ثم حاولت التعبير عن مشاعري بتساؤلات: لقد مضى على هذا الصراع نحو ستة أشهر، وسؤالي: أين نحن الآن؟ إنني أحسب دائماً أن علينا أن نفعل أكثر يا بوارو.

- حماستك تعجبني يا صديقي، لكن ماذا تريدني أن أفعل؟

هذا السؤال يدعو إلى الحيرة وجوابه ليس سهلاً، لكني حاولت الإصرار بعناد، ولذلك بادرت إلى إجابة متزنة تحمل بعض جوانب القوة.

- علينا أن نبادر نحن بالهجوم ولا ننتظرهم، وأظن أن ما أنجزناه في الحقبة الفائتة شيء قليل.

- ما تم إنجازه أكبر مما تظن يا هيستنغز. لقد كشفنا هوية رقم «٢» ورقم «٣» وعرفنا الكثير عن نفسية وأسلوب رقم «٤»... ربما لم يحن الوقت الذي أستطيع فيه توجيه التهمة للسيد ريلاند أو السيدة أوليفر، لكن أناساً كباراً قد وقعت في نفوسهم شكوك فيهما، مثل اللورد ألدينجتون الذي عرف شيئاً كثيراً عن الأربعة الكبار. إن الأربعة الكبار لا زالوا يستطيعون السير، لكن كشّافاً كبيراً يلاحقهم ويفضح أفعالهم.

- وماذا عن رقم «٤»؟

- ألم أقل لك إننا بدأنا نفهم أسلوبه وكيف يفكر؟ يمكن أن تسخر من هذا الكلام، لكن تتبّع شخصية ما ومعرفة ماذا سيفعل تماماً في كل الظروف مفتاح النجاح، وفي حين أزداد معرفة بدوره فإنني أسعى أن لا يعرف عني شيئاً. هو في الشمس ونحن تحت الظل، وهم في كل يوم يزدادون خشية مني وخوفاً.

- على كل حال فإنهم قد ابتعدوا عنا الآن، وصار الخطر بعيداً عنك والطريق خالياً من الكمائن.

- كلا، بل هذا السكون يدهشني، لا سيما وأن عندهم طريقين واضحين لينالونا، وأعتقد جازماً أن شيئاً قد تبين لهم. لا أدري، هل فهمت قصدي؟

حاولت أن أجيبه - إذ لم أفهم كلامه - جواباً تهكمياً. قلت: هل هي آلة جهنمية من نوع غريب لم تُعرف بعد؟

نفد صبر بوارو، وظهر ذلك من صوته الحاد الذي أحدثه بلسانه: حسناً، أنا محتاج إلى نزهة في الخارج على الرغم من برودة الطقس، أظن أنك تريد قراءة الكتب مثل «مستقبل الأرجنتين» و«تكاثر الماشية» و«دليل اللون القرمزي».

كان كتاب «دليل اللون القرمزي» يستحوذ على اهتمامي فرجاني بوارو أن أضع الكتب في مواضعها وأن أقضي على هذه الفوضى العارمة في البيت.

خرج بوارو بعد أن أبديت له اعتذاري بلطف، وتركني في متعتي التي لم يقاطعها أحد في كتابي المختار، ومع ذلك أعترف أنني كنت نصف نائم عندما سمعتُ طرقاً على الباب، وإذا السيدة بيرسون تقول: برقية لك يا كابتن.

وامتدت يدي إلى الظرف وفتحته من غير اهتمام. كانت البرقية من برونسين مدير مزرعة الماشية التي أملكها في أمريكا الجنوبية، وكانت على النحو التالي:

اختفت السيدة هيستنغز أمس. يُخشى أن عصابة تُسمي نفسها: «الأربعة الكبار» قد اختطفتها. أبلغنا الشرطة برقياً لكن لم يظهر أي أثر حتى الآن.

برونسين

تراجعتُ إلى الخلف ووقعت في المقعد الكبير مصعوقاً أعاود قراءة البرقية مرة بعد مرة... زوجتي الآن مخطوفة وبأيدي هذه المنظمة الإجرامية، فماذا أفعل؟ أين أنت يا بوارو؟ من

الضروري قدوم بوارو الآن؛ إنه يقدر على هزيمتهم، سوف أنتظر قدومه قبل أن أحاول القيام بأي فعل، لكن سندريلا في قبضة الكبار الأربعة الآن.

الباب يُطرقَ مرة أخرى، السيدة بيرسون من جديد: رسالة لك يا كابتن، أحضرها رجل صيني بربري يقف أسفل الدرج.

الرسالة كانت قصيرة: «إن أردت رؤية زوجتك فقُمْ مع حامل هذه الورقة من فورك، لا تتركْ رسالةً لصديقك وإلا فإنها سوف تعاني أذى كثيراً».

يا إلهي! ماذا سأفعل الآن؟ لا وقت للتفكير، يجب أن أطيع؛ فسندريلا في قبضة الكبار الأشرار. يجب أن أقوم مع هذا الرجل حيث يقودني، إنه فخ ومصيدة... نعم، إنه الأسر الأكيد والموت المحتمل، لكنْ ليس لي من الأمر بد، يجب أن لا أتردد.

وكيف أذهب ولم أترك لبوارو كلمة واحدة حتى يبحث عني؟

اجاثا كريستي & كتاب رواية

وترددت أن أكتب أية كلمة، شعرت أن للأربعة الكبار قوة خارقة يستطيعون أن يعرفوا بها كل صغيرة وكبيرة، وسهلٌ على الرجل الصيني أن يصعد ويتأكد بنفسه. لقد التزمت أوامرهم، ربما تكون الخادمة الحقيرة جندياً لهم! ومع ذلك قررت أن أترك البرقية لعلّ بوارو إذا اطّلع عليها يدرك تفصيل ما جرى.

لبستُ قبعتي وانطلقت مهرولاً خارج الباب حيث كان الرجل الصيني ينتظر. رجل طويل ذو وجه صارم، ثوبه بالٍ لكنه حسن، انحنى لي وألقى التحية، وكان يتقن الإنكليزية فقال: أنت الكابتن هيستنغز؟

- نعم.

- أعطني الرسالة لو سمحت.

لقد تنبأت بطلبه فسلمته القصاصة دون تردد.

- اليوم وردتْك برقية، ووصلتك الآن من أمريكا الجنوبية، أليس كذلك؟

هنا أدركت عظمة قدرتهم على التجسس والمتابعة، ولا ينفع الإنكار. لقد علموا كل شيء!

- بلى، وردتني برقية حقاً.

- هلاّ ذهبت وأحضرتها الآن؟

شعرت بالحنق والضيق يطوقان عنقي، وركضت على الدرج مرة أخرى، ثم خطر ببالي أن أفضي بالخبر للسيدة بيرسون التي تقف أعلى الدرج، لكن الخادمة الصغيرة كانت تقف قربها.

عبرت المجلس بعدما ترددت في إخبارها، وعدلت عن الفكرة فأخذت البرقية، ثم جاءتني فكرة... أترك علامة يفهمها

بوارو. أخذت أربعة كتب من الخزانة ونثرتها على الأرض، سوف يعرف أن ذلك شيء غير عادي عندما يتذكّر محاضرته المقتضبة قبل خروجه عن ضرورة الترتيب. ثم عمدت إلى مجراف الفحم فملأته ونثرت أربع فحمات في الموقد، ودعوت الله أن يوفق بوارو لمعرفة هذا الرمز.

وتدحرجت على الدرج مسرعاً، وأخذ الرجل الصيني البرقية فقرأها ثم أودعها في جيبه وأشار بحركة من رأسه أن أتبعه.

قادني في طريق طويل ممل، ركبنا القطار مرة والحافلة مرة أخرى ثم في سيارة أجرة، وكان الطريق إلى الشرق دائماً، حتى اقتربنا من أحواض السفن فعلمت أنني ذاهب إلى قلب الحي الصيني.

بدأ الرعب يسري في أوصالي وشعرت بالخوف أكثر حين توقف مرشدي بعد لفّ ودوران في ممرات وزقاق عند بيتٍ خربٍ متهاوٍ. طرق الباب أربعاً ففتح البابَ في الحال رجل صيني آخر، وأذِنَ لنا بالدخول. وشعرتُ أن إغلاق الباب خلفي كان نعياً لآخر آمالي في هذه الحياة... ها أنا ذا في الأسر!

قادني رجل صيني آخر عبر درجات متهاوية نحو الأسفل، إلى قبو مليء ببراميل خشبية فارغة تفوح منها رائحة التوابل الشرقية. وأحسست بجو الشرق الغريب يحيط بي، أزاح الرجل بضعة براميل فظهرت فتحة أرضية لنفق مظلم، فأمرني بالدخول، وكان ممراً ضيقاً مظلماً موحشاً يؤدي إلى قبو آخر.

تقدّمني الرجل وضرب على الجدار أربعاً ففُتح شق من الحائط، ودخلنا في ممر قصير يؤدي إلى قاعة مدهشة كأنها قطعة من قصر من قصور ألف ليلة وليلة. غرفة منخفضة جدرانها مكسوّة بالحرير الشرقي، والأرض مفروشة بالسجاد الثمين ومضاءة بصورة باهرة يعبق الجو فيها بالعطور الشرقية، وكان فيها بضع أرائك رائعة من صنع الصين.

جاء الصوت من خلف الستارة: هل حضر ضيفنا الكريم؟

أجاب الدليل: يا صاحب السعادة، إنه هنا.

- دعه يدخل.

فُتحت الستارة فظهرت أريكة ضخمة ذات وسائد، قد جلس عليها رجل عظيم طويل، يلبس ثياباً مطرّزة جميلة وقد استطالت أظفاره بشكل ملفت للنظر. قال وهو يشير بيده: اجلس يا كابتن هيستنغز، تسرني رؤيتك، وأشكرك على قدومك فوراً وتلبيتك لطلبي.

- من أنت؟ هل أنت لي شانغ ين؟

- في الحقيقة لا؛ أنا واحد من أبسط خُدّامه ليس غير. إنني أفعل ما يأمرني كما يفعل عماله الكثيرون المنتشرون في كل مكان كما في أمريكا الجنوبية مثلاً.

انتفضت من مكاني وصرخت: أين هي؟ ماذا فعلتم بها؟

- هي في مكان آمن، لم يصبها أحد بأذى حتى هذه اللحظة.

كانت ابتسامته الخبيثة تثير فيّ رعشة، وأدركت أنني أواجه شيطاناً فصرخت: ماذا تريد؟ المال؟

- عزيزي الكابتن هيستنغز... ليست لدينا مخططات للاستيلاء على مدخراتك القليلة فاطمئن، إنك لم تصب الهدف، وأظن أن صاحبك لم يكن ليوافقك هذا الرأي.

- أظن أنك أردت أن أقع في شركك وقد نجحت، ها أنا ذا جئتك وعيني مفتوحة، افعل بي ما تشاء واتركها، إنها لا تعرف شيئاً بتاتاً ولن يكون وجودها نافعاً، لقد أمسكتها لتمسك بي وتحقق لك ذلك.

شعرت بأن الرجل يرقب حركاتي بدقة بعينيه الصغيرتين وهو يربت على خديه، وقال: لقد ذهبت بعيداً جداً، المشكلة لم تحلّ يا كابتن... إن القبض عليك ليس هدفنا يقيناً، بل نحن نريد صاحبك السيد هيركيول بوارو.

أطلقت ضحكة سخرية وقلت له: لن تستطيعوا.

لكنه استمرّ متجاهلاً تعليقي: أرى أن تكتب رسالة إلى صديقك بوارو تقنعه بالمجيء هنا للانضمام إليك سريعاً.

قلت مُغضباً: لن أفعل.

- الرفض عاقبته لا ترضيك.

- عليك اللعنة!

- قد يكون مصيرك الموت.

غالبت رعشة غريبة سرت في جسدي وأجبته متصبّراً: تهديداتك لن تخيفني، ويحسن أن توفّرها لأمثالك من الصينين الجبناء.

- إنني جاد يا كابتن. للمرة الأخيرة: هل ستكتب هذه الورقة؟

- لن أفعل.

ومن فوره صفق الرجل بيديه تصفيقاً رفيقاً، فإذا باثنين من الخدم انشقت الأرض عنهما ينقضّان عليّ ويقيدان ذراعي قبل أن يسحباني إلى إحدى زوايا الغرفة حيث انهارت الأرض من تحتي. بقيت معلّقاً من يدي وجسمي مدلّى في الشق المظلم أسمع تحتي صوت تلاطم المياه، وسمعت الصوت الهادئ للرجل الجالس على الأريكة: النهر... فكر ثانية يا كابتن. سوف ينتهي أمرك في ثوانٍ لا غير.

أعترفُ أنني لست من أشجع الرجال، وأعترفُ أن الخوف والرعب سيطرا عليّ، وأيقنت أنني أعيش لحظاتي الأخيرة، ولم أملك تهدئة صوتي المرتعش وأنا أردّ عليه: لآخر مرة... لا اذهَبْ إلى الجحيم.

وأغلقت عينيّ - بغير إرادة مني - ودعوت دعاء قصيراً.

* * *

الفصل الثالث عشر

الجبان يظهر

تمر بالمرء لحظات نادرة في حياته يشعر فيها بأنه يقف على حافة الموت، وهذا واحد منها، فقد أيقنت أنني أعيش لحظاتي الأخيرة.

لكنني دهشت من الحارس يعيدني إلى مقعدي أمام ذلك الرجل الذي خاطبني قائلاً: أنت رجل شجاع يا كابتن هيستنغز، ونحن -معشر الشرقيين- نحترم الشجعان ونقدر الشجاعة. يمكن أن أقول إنني كنت أتوقع منك فعل ما فعلت، وهذا ينقلنا إلى الفصل الثاني من المأساة: إنك تضطرنا لاتخاذ مسلك آخر، فهل أنت قادر على احتمال موت امرئٍ يهمك كثيراً بنفس القدر من الشجاعة؟

أصابتني رعدة قاتلة وشعرت بالرعب يعتريني فقلت بصوت مخنوق: ماذا تقصد؟

- لا أظن أنك نسيت زهرة الحديقة وأنها في قبضتنا.

نظرت إليه نظرة أبله شارد يفيض ألماً وكآبة، فقال: أظن يا كابتن هيستنغز أنك على استعداد لكتابة الرسالة المطلوبة الآن. عندي نموذج للرسالة، ما عليك إلا أن تكتب ما أمليه عليك، واعلم أنك أمام خيارين: حياة زوجتك أو موتها.

تصبب العرق من جبيني وأنا أرى نفسي منساقاً لإرادة هذا المجرم الكبير في حين كان يبتسم بخبث وينطق بنعومة قاتلة: القلم جاهز في يدك، ما عليك سوى أن تكتب، وإذا لم تفعل...

- إذا لم أفعل؟

- إذا لم تفعل فإن تلك السيدة التي تحبها ستموت موتاً بطيئاً. إن سيدي لي شانغ ين يمتّع نفسه في أوقات فراغه باختراع أساليب جديدة وبارعة في التعذيب.

صحت: يا إلهي! أيها الشيطان، هذا لن يكون... إنك لن تفعل ذلك.

- هل أسرد عليك بعضاً من أساليبه؟

وأخذ - غير مكترث باحتجاجاتي - يتدفّق في حديثه بهدوء وسكون حتى سددت بيديّ أذنيّ وأنا أصيح فَزِعاً: هذا يكفي.

- حسناً، خذ القلم واكتب.

- إنك لا تجرؤ...

- كلامك حماقة وأنت تدرك ذلك جيداً. خذ القلم واكتب.

- لو فعلت فبماذا تعدني؟

- سوف تصبح زوجتك طليقة، سأرسل فوراً برقية لتنفيذ ذلك.

- وكيف أصدّقك؟

- أقسم بقداسة أضرحة أسلافي العِظام، ثم لقد تحقق هدفنا من حبسها فلا حاجة لنا بها.

- و... وبوارو؟

- سوف نبقيه لدينا لحين الفراغ من عملياتنا حيث سنطلقه بعد ذلك.

- هل ستقسم على ذلك أيضاً بحق أضرحة أسلافك العظماء؟

- لقد أقسمت مرة، وهذا يكفي.

غاص قلبي بين أضلعي... كيف أخون صديقي العزيز؟

ترددت هنيهة، ثم لم تلبث أن برزت أمام ناظري صورة زوجتي يعذبها هؤلاء الأشرار تعذيباً بطيئاً حتى الموت. أمسكت بالقلم، ربما أمكنني أن أُوصِل لبوارو تحذيراً مناسباً عن طريق

صياغة بعض الكلمات في الرسالة. وارتفع صوت الرجل الصيني بلباقة وأدب: اسمح لي أن أملي عليك:

عزيزي بوارو،

أظن أنني أطارد رقم «٤». لقد جاء رجل صيني بعد ظهر اليوم وأغراني برسالة كاذبة، ومن حسن الحظ أدركت لعبته الصغيرة في الوقت المناسب وأفلتُّ منه، ثم قررت أن أتعقبه على عاتقي حتى أشبع غروري.

إنني أرسل إليك فتى شاباً ذكياً يحمل إليك هذه الرسالة، أعطه نصف كراون، لقد وعدته بذلك إن هو سلمها بأمانة؛ فأنا أراقب البيت ولا أستطيع مغادرته. سوف أنتظرك حتى السادسة، فإن لم تأتِ أحاولُ الدخول إلى البيت بنفسي، إنها فرصة جيدة لا يصح أن نضيعها. وربما لا يجدك الفتى، ولكن إن وجدك فدعه يأتِ بك هنا فوراً واطمس شاربك حتى لا يعرفك من يراقب البيت.

المستعجل: أ. هـ.

كنت أزداد بأساً مع كل كلمة، وشعرت أنها حيلة ماكرة ذكية بارعة. لقد أدركت أهمية جمع المعلومات عن حياتنا بالتفصيل، فقد صاغوا هذه الرسالة بالطريقة ذاتها التي كان يمكن لي أن أصوغها. الاعتراف بأن الرجل الصيني الذي زارني بعد

ظهر ذلك اليوم قد سعى إلى إغوائي يذهب بالأثر المرجوّ لتركي الكتب الأربعة على الأرض وقطع الفحم الأربع في الموقد.

والوقت أيضاً حُدّد بذكاء: سوف يندفع بوارو بسرعة مع دليله البرئ المظهر لدى استلامه الرسالة، وعلمتُ يقيناً أن إصراري على دخول البيت سيدفعه إلى القدوم بأقصى سرعة. لقد أبدى على الدوام ارتياباً غريباً في قدرتي ولسوف يخالجه شعور بأنني أندفع إلى الخطر وأنا دون مستوى الحدث فيسرع للتدخّل في الوقت الملائم.

وشعرت أني عاجز أن أفعل أي شيء ينقذ بوارو.

أخذ الرجل الرسالة فقرأها وهزّ رأسه رضا، ثم أعطاها إلى أحد الخدم الصامتين فاختفى بها خلف الستارة المعلقة على الجدار.

والتقط الرجل نموذج برقية سلمها إليّ فقرأت فيها: «أطلق سراح الطائر الأبيض بسرعة».

تنهدت بارتياح وأنا أسأل: سترسلها على الفور؟

ابتسم وهو يهزّ رأسه نافياً: فقط عندما يصبح السيد بوارو في أيدينا، ليس قبل ذلك.

- ولكنك وعدت...

- ربما فشلت هذه الطريقة، وعند ذلك سنحتاج أن يقنعك طائرنا الأبيض ببذل مجهودات أكبر.

ازددت شحوباً وسيطر عليّ الغضب وهتفت: يا إلهي! لو أنك...

- كن مطمئناً. لن تفشل هذه الخطة؛ سوف يقع السيد بوارو في أيدينا وأبرّ بقسمي، وحتى ذلك الحين أنت في ضيافتنا وسوف يهتم خدمي بتنفيذ احتياجاتك في غيبتي.

* * *

تركوني في قبو تحت الأرض وحدي حيث كنت أسمع حركات الخدم وهم ينتقلون، وتنازعتني الهواجس: قلبي على زوجتي التي تعاني من قبضة هؤلاء الأشرار، وفي نفسي شعور بالذنب القاتل نحو صديقي بوارو، ثم إنني أخاف هؤلاء الشياطين الذين اتخذوا الخداع ديناً ولا يردعهم وازع ولا ضمير.

قدّموا لي الطعام والشراب لكنني أزحته جانباً وقد أصابني الغثيان. ثم ظهر الرجل الصيني مرة أخرى، كان طويلاً جليلاً يرفل في ثوبه الحريري الطويل، وكان يوجه العمليات بحركات من يده الصفراء.

أخرجوني من القبو إلى الغرفة الأولى، وكانت قريبة من الشارع يستطيع القاعد فيها مراقبة الطريق من خلال فتحات في الشبابيك. ولمحتُ عجوزاً يلبس أسمالاً بالية يشير بيده إلى

المنزل فعرفت أنه من العصابة. قال صاحبنا الصيني: هذا حسن، فقد وقع بوارو في الفخ، لقد جاء وحده مع الغلام الذي يرشده. والآن حان دورك يا كابتن، عليك أن تقوم لتظهر أمامه فيراك وتشير إليه ليدخل، فهو لن يفعل حتى يراك تصنع ذلك.

صحت ثائراً: ماذا؟

فقال بحزم: تذكر ثمن الفشل، إذا لم يدخل بوارو فإن زوجتك ستموت سبعين مرة، هيا بسرعة.

ونظرت بقلب يخفق وإحساس بالغثيان من خلال الشبابيك فعرفت صديقي الذي كان يمشي على طول الجانب المقابل من الشارع، رغم أن ياقة معطفه كانت مرفوعة واللفاع الأصفر الثخين يغطي أسفل وجهه، لكن تلك المشية هي مشية بوارو وذاك الرأس البيضوي هو رأس بوارو.

كان بوارو قادماً قطعاً ليساعدني بوفاء وشهامة لا يشك بأن في الأمر حيلة، وإلى جنبه كان يمشي غلام لندني وجهه متجهم وعليه ثوب بالٍ. وتوقف بوارو وهو ينظر ناحية البيت بينما كان الولد يتكلم بلهفة ويشير، وكان الوقت قد حان لألعب دوري.

خرجت إلى القاعة، وبإشارة من الرجل الصيني فتح أحد الخدم مزلاج الباب، وهمس عدوي: تذكر ثمن الفشل.

خرجت عند العتبة وأشرت إلى بوارو بيدي فأسرع يقطع

الشارع ناحيتي: آه، إذن فكل أمورك كما يرام يا صديقي؟ لقد بدأت أقلق، هل دخلت البيت؟ هل البيت خالٍ؟

قلت بهمس أجتهد أن أجعله مطمئناً: أجل، لا بد أن فيه طريقاً سرياً، ادخل ودعنا نلتمسه.

عدت إلى درجات العتبة وهمّ بوارو ليتبعني ببراءة. ثم بدا أن شيئاً ما يدور في رأسي؛ وفجأة صرخت: ارجع يا بوارو... ارجع من أجل حياتك. إنه فخ، لا تهتم بي، اهرب في الحال!

في اللحظة التي تكلمت أو صرخت محذراً أمسكت بي يد كأنها كمّاشة، وقفز أحد الخدم الصينيين أمامي لكي يمسك بوارو.

وقفز بوارو إلى الخلف ورفع يده، ثم فجأة تصاعد دخان كثيف حولي يخنقني، يقتلني، وأحسست أنني أنهار... كان هذا هو الموت!

* * *

عدتُ إلى وعيي وأنا أتألم ورأسي يدور، فرأيت أول ما رأيت وجه بوارو يقعد مقابلي يراقبني بوجهٍ قلق، وصرخ فرحاً حين رآني أنظر إليه: آه! لقد عاد وعيك، كل شيء جيد يا صديقي المسكين.

- أين أنا؟

- أين؟ في بيتنا.

نظرت حولي... أجل، هذا المحيط أعرفه، وفي الموقد كانت قطع الفحم الأربع التي نثرتها.

- نعم، لقد أحسنتَ صنعاً، كانت هذه فكرةً ممتازةً هي وفكرة الكتب. لو أنهم قالوا لي: "إن صديقك هيستنغز غير واسع العقل فسوف أقول: كلا، بل أنتم مخطئون.

- إذن فقد فهمتها؟

- نعم، لقد أخذت حِذْري وأنفقتُ الوقت اللازم لأُحكِمَ خطتي. فكّرت: لقد نقلك الأربعة الكبار بالقوة، لماذا؟ ليس لأنهم يخافونك ويريدون أن يبعدوك عن الطريق، كلا، بل جعلوك طُعماً ليصطادوا به بوارو العظيم. كنت أنتظر هذا منذ زمنٍ فأعددت له، ولما وصل ذلك الولد الصغير البريء رسولاً منهم فهمتُ كل شيء وأسرعت معه، ومن حسن الحظ أن سمحوا لك بأن تقف على العتبة، فقد كنت أخشى أن أفشل في العثور عليك بعد أن أتخلّص منهم.

قلت بوهن: هل قلت «تتخلص منهم»؟ وحدك؟

- لا شيء من أمرهم يحتاج ذكاءً، إذا استعد المرء من قبل فكل شيء عندئذٍ يهون، هذا هو شعار الكشافة... إنهم يقولون: «كن مستعداً»، أليس كذلك؟ منذ وقت غير بعيد قدمتُ خدمة لكيماوي شهير له عمل في الغازات السامة في أثناء الحرب، فابتدع لي قنبلة صغيرة بسيطة يسهل حملها وما عليّ إلا أن أرميها

فتنفجر، فيتصاعد منها دخان ثم يكون فقد الوعي. وفي الحال صفرت قليلاً فأسرع بعض زملاء جاب (وكانوا يراقبون البيت قبل أن يصل الولد إلى بيتنا فتتبعوا طريقنا حتى لايم هاوس) حيث تولوا هم الأمر برمته.

- لكن لماذا لم تفقد أنت وعيك؟

- صاحبنا رقم «٤» الذي ألّف تلك الرسالة المحبوكة ذكر ملاحظة ساخرة عن شاربي، فأخفيته ومعه كمامة التنفس تحت وشاحي الأصفر.

صحت بلهفة: إنني أتذكر.

ومع كلمة «أتذكر» عادني الرعب والخوف على سندريلا، فتراجعت وأنا أئنّ. ولا بد أنني فقدت الوعي مرة أخرى بعض الوقت، ثم صحوت فإذا بوارو يدفع لي كأس الليمون.

- ما الأمر يا صديقي؟ قل لي.

أخبرته بالأمر كلمةً كلمةً وأنا أرتعش، فصاح بوارو: يا صديقي! لقد عانيتَ كثيراً لكنني لم أكن أعرف شيئاً من هذا، فاطمئن؛ كل شيء على ما يرام.

- هل ستجدها؟ لكنها في أمريكا الجنوبية وحين نصلها تكون قد ماتت منذ زمن طويل، والله وحده يعلم كيف ستموت.

- لا، لا، أنت لم تفهم، إنها آمنة وفي صحة حسنة، بل هي لم تقع في أيديهم أصلاً.

- لكن البرقية من برونسين؟

- لا، أنت لم تستلم منه برقية. ربما استلمت برقية من أمريكا الجنوبية باسم برونسين، وهذا مختلف. قل لي: ألم يظهر لك أن منظمة مثل هذه ذات فروع في كل أنحاء العالم يمكن أن تضغط علينا بواسطة فتاة صغيرة مثل سندريلا التي تحبها كثيراً؟

- لم أفكر بهذا الأمر أبداً.

- حسناً، أما أنا فقد عرفت ذلك لكني لم أقل لك شيئاً لأنني لم أردْ أن أزعجك من غير ضرورة، لكني اتخذت إجراءاتي الخاصة. إن رسائل زوجتك تبدو وكأنها كتبت كلها من المزرعة، لكنها كانت في مكان آمن دبرته أنا منذ ثلاثة شهور.

نظرت إليه طويلاً، وأخيراً سألت بسذاجة: حقاً؟

- نعم، إنما عذبوك بكذبة.

أدرت رأسي، فوضع بوارو يده على كتفي. كان في صوته شيء ما لم أسمعه أبداً من قبل وهو يقول: أنت لا تحب أن أعانقك. سوف أتصرّف على الطريقة الإنكليزية، لن أقول شيئاً أبداً، لكن دعني أقُلْ: ما أسعد رجلاً عنده صديق مثل صديقي!

* * *

الفصل الرابع عشر
البروكسيد

خاب ظني كثيراً من نتيجة هجوم بوارو بالقنبلة على البيت في الحي الصيني، فقد هرب رأس العصابة.

عندما هُرِع رجال جاب بعدما صفر بوارو وجدوا أربعة رجال صينيين في القاعة فقدوا وعيهم، لكن الذي هددني بالموت لم يكن فيهم، فتذكرت حينئذٍ أنني حين أُجبرت على الخروج إلى عتبة الباب بقي هذا الرجل في المؤخرة، وبذلك ظلّ خارج منطقة الخطر الذي أحدثته القنبلة ففر من مخرج من المخارج الكثيرة التي عرفناها فيما بعد.

لم نعلم من الأربعة الذين وقعوا في قبضتنا شيئاً، والتحقيق الواسع الذي أجراه الشرطة لم يكشف صلةً لأحدهم بالأربعة الكبار. لقد كانوا من فقراء الحي، وقد ادّعوا جهلاً تاماً باسم لي شانغ ين، إنما استأجرهم رجل صيني للخدمة في البيت ولم يكونوا يعلمون شيئاً من شؤونه الخاصة.

في اليوم التالي تعافيت تماماً من أثر القنبلة إلا من صداع خفيف، فنزلنا إلى الحي الصيني وتفحصنا البيت الذي استُنقِذت منه. كان المبنى يتألف من بيتين مصدّعين متصلين معاً بممر من تحت الأرض، وكانا مهجورين لا فرش فيهما، وقد غُطّيت الشبابيك المكسورة فيهما بستائر بالية.

اطّلع جاب على الأقبية وكشف المدخل المؤدي إلى القبو الذي لبثتُ فيه نصف ساعة عسيرة، وأكد التحقيق أنها غرفة جُهّزت خصيصاً من أجلي في الليلة السابقة. الحرير الذي كسا الحيطان والأريكة والسجاد الممدود على الأرض كان متقناً، قد لا أكون من الخبراء العارفين في الفن الصيني إلا قليلاً، ولكني أملك أن أجزم أن كل قطعة في تلك الغرفة كانت بالغة القيمة عظيمة الشأن.

أجرينا تفتيشاً دقيقاً للبيت. وكنت أرجو أن نجد وثائق هامة، ربما قائمة بأسماء عملاء الأربعة الكبار أو رسائل في خططهم، لكننا لم نجد شيئاً إلا رسائل كان الرجل الصيني يرجع إليها عندما كان يملي عليّ رسالتي إلى بوارو، وكانت تتألف من سجلّ كبير عن كل عمل عملناه وعن شخصيتنا ومكامن ضعفنا!

كان بوارو مبتهجاً من هذا جداً كأنه طفل، أما أنا فلم أحسب أنها ذات قيمة، لا سيما وأن الرجل الذي جمعها -كائناً من كان- قد أخطأ في بعض آرائه بصورة مضحكة،

وقد أوضحت ذلك لصديقي ونحن في طريق العودة إلى بيتنا، قلت: بوارو، أنت تعرف الآن ماذا يظننا خصمنا؟ يبدو أنه بالغ كثيراً في تقدير قوتك العقلية واستخف بي! لا أدري كيف يمكن أن تنفعنا هذه المعرفة؟

ضحك بوارو بطريقة مزعجة وقال: أنت لم تفهم يا هيستنغز، إننا نستطيع الآن أن نُعدّ أنفسنا لمواجهة أساليبهم في الهجوم حيث أدركنا بعض أخطائنا. مثلاً يا صديقي، نعلم أنك يجب أن تفكر قبل أن تعمل، فإذا رأيت مرة أخرى فتاة ذات شعر أحمر في مشكلة فيجب أن تنظر إليها بارتياب، أليس كذلك؟

كان في رسائلهم إشارات سخيفة عن تهوري المحتمل، وأشاروا إلى أنني كنت سريع التأثر بالفتيات ذوات الشعر الأحمر، وكان فيها إشارة تعني بوارو فقدرت على الرد عليه: وماذا عنك؟ هل ستعالج «غرورك المفرط» و«أناقتك الشديدة»؟

لم يكن بوارو مسروراً من ردي السريع.

- بلا ريب يا هيستنغز إنهم يخدعون أنفسهم في بعض الأمور، وسيعلمون ذلك في الوقت المناسب. وفي غضون ذلك علمنا بعض الأشياء وعرفنا أنه يلزمنا الاستعداد.

* * *

كانت الكلمة الأخيرة هذه البديهية المفضلة لديه منذ عهد

قريب، وقد بدأت أكره معناها، وما زال قائلاً: هيستنغز، إننا نعرف شيئاً ما وهذا فيه خير، لكنْ ينبغي أن نعرف أكثر.

- في أي اتجاه؟

استرخى بوارو في كرسيّه وعدّل علبة الكبريت التي ألقيتها على الطاولة بإهمال، وأحسست أنه يستعد لإلقاء خطبة طويلة.

قال: يجب يا هيستنغز أن نواجه أربعة أعداء، أربعة أشخاص مختلفين، رقم «١» عرفناه ولم نعامله، وبالمناسبة، لقد بدأتُ أفهمه فهماً حسناً يا هيستنغز: عقل شرقي حاذق، إن كل ما لقيناه كان من تدبير عقل لي شانغ ين.

رقم «٢» ورقم «٣» لهما نفوذ ومرتبة عليا، وهما لذلك في حصانة من هجومنا، غير أن هذا سلاح ذو حدّين: إنهما مكشوفان فينبغي أن يقدّرا حركاتهما بعناية، وهما - مع ذلك - قادران على النجاح لما لهما من شهرة ومنصب. أما رقم «٤»...

تغيّر صوت بوارو قليلاً، وتابع: أما رقم «٤» فإن نجاحه في تخفّيه. من هو؟ لا أحد يعرف! ما هو شكله؟ لا أحد يعرف! كم مرة رأيناه؟ خمساً، أليس كذلك؟ فهل يستطيع أحدنا أن يجزم بأنه سيعرفه إذا رآه من جديد؟

تذكرتُ الرجال الخمسة المختلفين: حارس المصحة القوي الجسم، جيمس الرجل الذي كان يلبس المعطف المزرّر

في باريس، الخادم، الطبيب الشاب الباسم في قضية الياسمين الأصفر، والبروفيسور الروسي... لم يُشبِه أيٌّ واحد من هؤلاء الخمسة الآخر، فقلت: لا، لا دليل عندنا بتاتاً!

تبسّمَ بوارو وقال: أرجوك لا تدع لهذا اليأس الشديد سبيلاً إليك. لقد علمنا شيئاً أو شيئين... علمنا أنه رجل متوسط الطول أشقر الشعر قليلاً، فلو كان رجلاً طويلاً أسمر لما استطاع أن يخدعنا في هيئة الطبيب الأشقر القصير، ولا بد أن يكون أنفه صغيراً مستقيماً لأن الأنف الكبير لا يصير صغيراً، ثم لا بد أن يكون رجلاً شاباً ليس أكبر من الخامسة والثلاثين، متوسط الطول، لونه طبيعي، خبيراً في الماكياج، ليست لديه أسنان طبيعيّة...

- ماذا؟

- أجل يا هيستنغز؛ فالحارس كانت أسنانه مكسورة صفراء، وفي باريس كانت أسنانه بيضاء مستوية، وحين كان طبيباً كانت أسنانه بارزة قليلاً، ولما كان سافرونوف كانت أنيابه طويلة... لا شيء يغير الوجه مثل طقم مختلف من الأسنان، هل ترى أين يقودنا كل هذا؟

- لا أدري.

- يقولون: «حرفة الرجل مكتوبة في وجهه».

- مجرم؟

- بل أقصد أنه خبير في فن الماكياج أو أنه ممثل أو كان ممثلاً في يومٍ ما.

- ممثل؟

- نعم، فنان بارع. الممثلون صنفان: صنف يطيعه دورُه وصنف يطيع دورَه، صنف يؤثر في الدور وصنف يتأثر به ويقلب شخصيته حسب دوره. يجب أن نبحث عن رقم «٤» بين ذلك الصنف السابق، إنه فنان بارع يلبس الشخص الذي يمثل دوره بإتقان.

اجاثا كريستي & كتاب رواية

كنت أزداد استثارة، وقلت: إذن فأنت تظن أنك تستطيع أن تتبع أثره في المسرح؟ وددت لو أن هذه الفكرة جاءتك من قبل، لقد ضيعنا الكثير من الوقت.

- كلا يا صديقي، لم نضيع وقتنا. عملائي مشغولون بالبحث منذ بضعة شهور، وقد جمعوا قائمة بالرجال الذين تنطبق عليهم الأوصاف المطلوبة: شباب في نحو الثلاثين ذوو موهبة في التمثيل، تركوا المسرح في السنين الثلاث الأخيرة بصورة قاطعة.

فقلت بشوق: حسناً؟

- كانت القائمة طويلة، منذ زمن ونحن مشغولون بالحذف وأخيراً أخرجنا منها أربعة أسماء... ها هي يا صديقي.

أعطاني قصاصة من الورق قرأتها جهرة:

إيرنست لوتْريل: ابن كاهن في الشمال، غريب الأطوار، طُرد من مدرسته فذهب ليعمل في المسرح وهو في الثالثة والعشرين، مدمن مخدرات، يُفترَض أنه سافر إلى أستراليا قبل أربع سنوات ولم نستطع متابعته منذ غادر إنكلترا. عمره الآن اثنان وثلاثون عاماً، طوله ٥ أقدام و١٠ بوصات، حليق، شعره بني، أنفه مستقيم، البشرة فاتحة، العينان رماديتان.

جون سانت مور: اسم منحول، الاسم الصريح مجهول، كأنه من أصل لندني، عمل في المسرح منذ أن كان طفلاً حيث كان يؤدي أدواره في مسرح المنوعات، انقطعت أخباره منذ ثلاث سنوات، في الثالثة والثلاثين، طوله ٥ أقدام و١٠ بوصات، نحيف، عيناه زرقاوان، لونه أشقر.

أوستين لي: اسم منحول، اسمه الصريح أوستين فولي، من أسرة طيبة، كان يحب شكلاً واحداً من التمثيل وكوّن لنفسه شخصية متميزة، له سجل حربي متألق، مثّل في مسرحيات عدّة وكان يتحمس لتمثيل قصص الجريمة، أصابه انهيار عصبي شديد من حادث سيارة قبل ثلاث سنوات ونصف السنة فلم يظهر على المسرح بعدها. لا أثر له يدل على مكانه الآن، عمره ٣٥ سنة، طوله ٥ أقدام و٩

بوصات ونصف، بشرته شقراء وشعره بني وعيناه زرقاوان.

كلود داريل: يُفترض أنه اسم صريح، أصله مجهول، مثّل في مسرح المنوعات، ليس له أصحاب مقربون، كان في الصين في عام ١٩١٩ ثم عاد عن طريق أمريكا، مثّل أدواراً قليلة في نيويورك، وفي إحدى الليالي لم يظهر على خشبة المسرح ولم يُسمَع عنه شيء بعدها، يقول شرطة نيويورك إن اختفاءه غامض جداً، عمره ٣٣ سنة، شعره بني، بشرته شقراء، عيناه رماديتان، طوله ٥ أقدام و١٠ بوصات ونصف.

قلت وأنا أضع الورقة: هذا مثير مدهش! إذن فهذه نتيجة التحقيق الذي دام شهوراً؟ وهذا الأسماء الأربعة، أيٌّ منها تشك فيه؟

أشار بوارو بيده بإيماءة نصيحة: يا صديقي، إن هذا سؤال مبكر في الوقت الراهن. لا بدّ أنك لاحظت أن كلود داريل كان في أمريكا والصين، وهي حقيقة ذات دلالة. ربما، ولكن لا يجدر أن نسمح لأنفسنا بالتحيّز لهذه النقطة تحيزاً مفرطاً، ربما كان ذلك مجرد مصادفة.

سألت متلفهاً: وما هي الخطوة التالية؟

- الأمور تسير بنظام. ستظهر كل يوم إعلانات مكتوبة

بحذر، أصدقاء أو أقرباء أحد هؤلاء الأربعة سيتصل بمحاميّ في مكتبه، حتى اليوم يمكن أن يكون... آه، إنه الهاتف يرنّ. ربما يكون الرقم خطأ كالعادة، وسوف يعتذرون عن الإزعاج، وربما يكون شيء قد ظهر.

عبرت الغرفة ورفعت السماعة: نعم، نعم، هنا بيت السيد بوارو، أنا الكابتن هيستنغز. آه، السيد ماكنيل؟ نعم، الآن أخبره ونأتي حالاً

رددت السماعة ورجعتُ إلى بوارو قائلاً: بوارو، محاميك السيد ماكنيل اتصل يقول إن امرأة صديقة لكلود داريل اسمها الآنسة فلوسي مونرو موجودة في مكتبه، وهو يريد أن تذهب إليه.

صاح بوارو: فوراً.

واختفى في غرفة نومه ليعود وعلى رأسه القبعة، وفي الحال ركبنا سيارة حملتنا إلى وجهتنا، ودخلنا مكتب السيد ماكنيل الخاص.

* * *

جلست على المقعد المواجه للمحامي امرأة دميمة تجاوزت سن الشباب، شعرها أصفر مقزّز فيه خصلات مجعدة فوق كل أذن، وجفناها مصبوغان بالسواد، ولكنها لم تنسَ - على كل حال - وضع الحمرة وأحمر الشفاه!

قال ماكنيل: ها هو السيد بوارو... سيد بوارو، ها هي الآنسة مونرو التي تلطفت كثيراً بنا واستجابت لنا.

- آه، هذا لطف كبير.

ثم تقدم بوارو وقال بحماسة غير آبهٍ بمشاعر السيد ماكنيل: إن الآنسة تزهر كالوردة في هذا المكتب الممل العتيق.

احمرّ وجه الآنسة مونرو خجلاً وابتسمت ابتسامة متكلّفة وهي تعلّق قائلة: لا تمزح يا سيد بوارو، إنني أعرفكم أيها الفرنسيون.

- يا آنسة، نحن لسنا كالإنكليز بلهاء أمام الجمال، وأنا لست فرنسياً، أنا بلجيكي.

- لقد ذهبتُ إلى أوستند بنفسي.

الأمر كله - كما كان بوارو يقول - يسير بصورة رائعة.

- إذن فأخبرينا عن السيد كلود داريل.

- عرفت السيد كلود داريل يوماً ما، وقد رأيت إعلانك، وحيث إنني لا أعمل الآن في المحل فقد قلت لنفسي: إنهم يريدون أن يعرفوا عن المسكين العجوز كلودي، فلعلّ وراءه ثروة لم يعرفوا وارثها، لذا يجب أن أذهب في الحال.

نهض السيد ماكنيل قائلاً: حسناً يا بوارو، هل أترككم وحدكم؟

- أنت لطيف جداً، لكن ساعة الغداء تقترب وقد خطرت ببالي فكرة صغيرة، ربما تريد الآنسة أن تأتي معي لنتناول الغداء.

تلألأت عيناها، وخطر ببالي أنها كانت في ضائقة مالية وأن وجبة مُشبِعة لا تُرفَض! وخرجنا جميعاً في سيارة أجرة نحو أحد مطاعم لندن الفاخرة، وعندما وصلنا طلب بوارو غداء لذيذاً.

بدأت تأكل وجبتها بشهيّة فيما طرق بوارو موضوعه المهم بحذر: مسكين السيد داريل، إنني آسف لأنه ليس معنا الآن.

تنهدت الآنسة مونرو قائلة: صدقت، الحق أنه ولد مسكين! ترى ماذا جرى له؟

- لقد مضى وقت طويل على رؤيتك له، أليس كذلك؟

- آه، بلى؛ منذ سنوات. لم أره منذ الحرب... كلودي كان ولداً مرحاً لا يتحدث عن نفسه أبداً، لكن كل شيء سيبين إذا كان هو وريثاً مفقوداً. وهل هو إرث شرعي يا سيد بوارو؟

قال بوارو بلا تردد: للأسف مجرد تركة، والمسألة هي في تحديد الهوية، لذلك يلزمنا البحث عن شخص كان يعرفه جيداً. أنت كنت تعرفينه جيداً، أليس كذلك يا آنسة؟

- لا بأس يا سيد بوارو، فأنت رجل لطيف تُحسن اختيار

طعام السيدات بأفضل من صغار هذه الأيام السفهاء، وأظن كونك فرنسياً غير مخيف.

عارضها بوارو متلطّفاً: لا، لا يا آنسة، لا تقولي ذلك. والآن هلاّ وصفتِ لي السيد داريل هذا؟

- ليس بالطويل ولا بالقصير، أنيق، عيناه رماديتان فيهما زرقة، شعره أشقر، فنان وأي فنان! لم أرَ مثله في الناس، ولولا الغيرة لأصبح رجلاً مشهوراً. آه يا سيد بوارو، كم نعاني نحن الفنانين من الغيرة والحسد، أذكر مرة في مانشستر...

- هذا كلام جميل يا آنسة في أمر السيد داريل، النساء لا ينسين شيئاً ويلاحظن ما يفوت الرجال. لقد عرفتُ امرأة عرفَتْ رجلاً من بين اثني عشر رجلاً، فهل تدرين كيف؟ لقد لاحظتْ سمة مميزة تظهر على أنفه إذا غضب. هل في الرجال من يلاحظ شيئاً كهذا؟

صرخت مونرو: ألا تستطيع ذلك؟ نعم، نحن نلاحظه. أتذكّر كلودي، الآن بدأت أفكر بذلك: كان كثير العبث بالخبز الموضوع على الطاولة، كان يضع قطعة صغيرة بين أصابعه ويفركها ليأكل لبّ الرغيف. لقد رأيته يفعل ذلك مئة مرة وأستطيع أن أعرفه من هذه العادة فيه.

- وهل تحدثت معه عن عادته هذه يا آنسة؟

- لا؛ فأنت تعرف طبع الرجال: لا يحبون أن تنتقدهم،

ولا سيما إن بدا لهم أنك تنهاهم عن فعلها. لم أقل كلمة واحدة البتة، لكني كنت أضحك في سرّي كثيراً... إنه لم يكن يشعر بفعله!

هزّ بوارو رأسه موافقاً، ورأيت يده ترتعش قليلاً حين مدّها إلى صحنِه، قال: وخط اليد وسيلة لتحديد الهوية، لا شك أن عندك رسالة كتبها السيد داريل.

هزّت رأسها أسفاً: لم يكتب لي سطراً في حياته قط.

- هذا مؤسف.

قالت مونرو فجأة: لكنّ عندي صورة.

قفز بوارو من كرسيه مذهولاً، فقالت: إنها صورة قديمة، حين كان عمره ثمانية أعوام.

- لا ضيْر إن كانت عتيقة أو باهتة، هلاّ أعطيتني إياها يا آنسة؟

- نعم.

- ربما تأذنين أن أستنسخ منها، إن ذلك لا يأخذ وقتاً.

- أجل، إذا كنت تحب ذلك.

نهضت مونرو وقالت بمكر: يجب أن أنصرف، أسعدني لقاؤك أنت وصاحبك يا سيد بوارو.

- والصورة؟

- سأبحث عنها هذه الليلة. أظن أنني أعلم مكانها، وسوف أرسلها لك فوراً.

- ألف شكر يا آنسة، أنت لطيفة جداً، وأرجو أن نأكل الغداء معاً في وقت قريب.

- أنا على استعداد متى شئت.

- لكني أجهل عنوانك.

وبكبرياء شامخة سحبت مونرو بطاقة من حقيبتها فأعطتها له. كانت بطاقة وسخة بعض الشيء، وكان العنوان المطبوع مشطوباً وقد كُتب فوقه عنوان آخر بقلم رصاص.

ثم مع كثير من الانحناء ودّعنا المرأة وذهبنا، وسألتُ بوارو: هل تظن حقاً أن هذه الصورة مهمة؟

- نعم يا صديقي... «الكاميرا لا تكذب». نستطيع أن نكبّر الصورة ونضبط النقاط البارزة ونعلم كثيراً من التفصيل: الأذن التي لا يستطيع أن يصفها لك أحد مثلاً. حقاً ما أعظم هذه الفرصة التي جاءت لنا، من أجل هذا اتخذت احتياطي.

عبر نحو الهاتف وطلب رقم وكالة التحري الخاصة، أوامره كانت واضحة وحاسمة: اثنان من الرجال يذهبان إلى

عنوان ذكره ويراقبان مونرو، يتبعانها حيث تروح وتجيء ويوفّران لها الحماية اللازمة.

رد بوارو السمّاعة وعاد إليّ، فسألته: وهل هذا لازم يا بوارو؟

- ربما، لا ريب أنني أنا وأنت مراقَبان، وسوف يعرفون مَنْ كان يأكل معنا الغداء اليوم. ربما أحس رقم «٤» بالخطر.

* * *

مضت عشرون دقيقة. رنّ الهاتف، وعندما أجبتُ عليه سمعت على الطرف الآخر صوتاً جافاً: أهذا هو السيد بوارو؟ هنا مستشفى سينت جيمس. قبل عشر دقائق أُحضرتْ لنا امرأة شابة، الآنسة فلوسي مونرو... حادث سيارة... إنها تسأل عن السيد بوارو بإلحاح شديد، يجب أنْ يأتيَ حالاً فربما لا تعيش طويلاً.

أخبرت بوارو، فاصفرّ وجهه وهتف: هيا يا هيستنغز، هيا ننطلق كالبرق!

وفي غضون عشر دقائق وصلنا إلى المستشفى. سألنا عن مونرو، وصعدنا إلى جناح الحوادث لكن ممرضة قابلتنا عند الباب، وقرأ بوارو الخبر في وجهها.

- ماتت؟

- قبل ست دقائق.

وقف بوارو مصعوقاً وبدأت الممرضة تكلمه بلطف وهي لا تدري حقيقة حزنه: إنها لم تُعانِ ألماً، ظلت فاقدة للوعي. لقد دهمتها سيارة ولم يتوقف السائق... آمل أنّ أحداً قد سجل رقم سيارته.

قال بوارو همساً: الأحداث تتسارع ضدنا.

- أتود أن تراها؟

تقدمتنا الممرضة وتبعناها. المسكينة فلوسي مونرو: مُمدَّدة والحمرة على شفتيها وشعرها المصبوغ... إنها ترقد بسلام وعلى وجهها بسمة.

همس بوارو: أجل، الأحداث تجري ضدنا!

وفجأة رفع رأسه وكأن فكرة ما قد خطرت له وقال: **لقد اقتربت نهاية هؤلاء الأشرار**... أقسم لك وأنا أقف هنا بجانب جثة هذه المسكينة أنني لن أرحمهم عندما يحين الوقت.

- ماذا تقصد؟

لم يجب بوارو بشيء، بل التفت إلى الممرضة وهو يطلب بلهفة بعض المعلومات، وأخذ أخيراً قائمة بالأغراض التي وُجدت في حقيبتها. وصاح بوارو صيحة مكبوتة وهو يقرؤها: هل ترى يا هيستنغز؟ هل ترى؟ لا ذكر لمفتاح الباب... لا شك

أن معها مفتاحاً، لا، لقد صُرعتْ بدم بارد وأول رجل انحنى فوقها أخذ المفتاح من حقيبتها، لكن الوقت ما زال معنا، فقد لا يجد ما يريده في الحال.

وحملتنا سيارة أخرى إلى عنوانها، في واحد من بيوت قذرة متجاورة في حيٍّ قديم. ومضى وقت طويل حتى أُذِنَ لنا أن ندخل بيتها، لكننا كنا قانعين أن أحداً لا يستطيع أن يغادر ونحن نرقب البيت من الخارج.

وأخيراً دخلنا، وكان واضحاً أن شخصاً قد دخل قبلنا هنا؛ لأن محتوى الأدراج والخزائن كله مبعثر منثور، والأقفال مكسورة والطاولات مقلوبة... كانت عجلة الباحث قبلنا عنيفة جداً!

بدأ بوارو يبحث في الحطام، وفجأة وقف منتصباً يصرخ ويمسك إطاراً عتيقاً لصورة فوتوغرافية... أما الصورة نفسها فقد اختفت! قلّبه ببطء، وكان على ظهر الإطار لاصق مدوّر صغير، ملصق يبين السعر.

قلت له: ثمنه أربعة شلنات.

- أبصرْ جيداً يا عزيزي هيستنغز... إنه لاصق جديد، ألصقه الرجل الذي نزع الصورة والذي سبقنا هنا. كان يعلم أننا سنحضر لذلك ترك لنا هذه... إنه رقم «٤»، كلود داريل بالتأكيد.

* * *

الفصل الخامس عشر

الفاجعة الرهيبة

بدأتُ أدرك أن بوارو تغير بعد الوفاة المأساوية لمونرو. حتى ذلك الحين كانت ثقته بنفسه التي لا تهتز قد قاومت التجربة، لكن الإجهاد الطويل أخذ منه مأخذاً فكان يبدو مهموماً كئيباً كأنما أعصابه توشك أن تنهار.

في هذه الأيام كان هائجاً كأنه قط، يتجنب كل نقاش في الأربعة الكبار، لكني كنت أعلم أنه كان نشيطاً في المسألة سراً. كان يزوره رجالٌ غرباء في كثير من الأحيان، لكنه لم يتعطّف عليّ بأي بيان لهذا النشاط الخفي، وفهمت أنه كان يبني دفاعاً جديداً أو سلاح مواجهةٍ بمساعدة هؤلاء الرجال ذوي المظاهر المثيرة للاشمئزاز.

وذات مرة - مصادفةً - رأيت ما هو مدوّن في دفتر حسابه المصرفي، وكان قد طلب مني أن أتحقق من أمرٍ ما، فعرفت أنه

قد دفع مبلغاً كبيراً من المال، كبيراً جداً حتى على بوارو الذي يكسب المال عادة بسرعة، دفعه لرجل روسي ما أطول اسمه!

وما زال يكتم الأمر. كان يكرر دوماً قوله: "إياك أن لا تقدّر عدوك يا صديقي، تذكر ذلك دائماً"، ففهمت أن ذلك كان الشرك الذي يجتهد أن يتجنبه بأي ثمن.

وهكذا سارت الأمور حتى نهاية آذار (مارس). وفي أحد الأيام قال بوارو كلاماً أرعبني، قال: هذا الصباح يا صديقي عليك أن تلبس أفضل ثيابك، سنزور وزير الداخلية.

- حقاً؟ هذا مدهش! وهل هو الذي استدعاك؟

- لا، بل أنا طلبت مقابلته. لعلّك تذكر أنني أديتُ له من قبل خدمة وهو متحمس بسببها وسوف تنفعني حماسته، وكما تعرف فإن رئيس وزراء فرنسا السيد ديسجارديور يزور لندن الآن، وسوف يحضر اجتماعنا الصغير هذا الصباح.

اللورد سيدن كراوثر وزير الداخلية رجل معروف مشهور في الخمسين من عمره، ذو أسلوب مرح وعيون رمادية لاذعة. استقبلنا بتلك الطريقة المرحة الأنيسة، وكان في البيت رجل طويل نحيف يقف وظهره إلى الموقد ذو لحية سوداء ووجه رقيق.

قال كراوثر: سيد ديسجارديو، هذا هو السيد هيركيول بوارو، لعلك سمعت به.

انحنى الرجل الفرنسي ومد يده يصافحه، وقال بفكاهة: أجل، لقد سمعنا بالسيد هيركيول بوارو، ومن ذا لا يعرفه؟

احمرّ وجه بوارو من البهجة، وقال: هذا لطف منك يا سيدي.

ثم تقدم رجل من زاوية بجانب خزانة كتب طويلة. كان ذاك هو السيد إنغليز صديقنا القديم، وصافحه بوارو بشدة. قال كراوثر: والآن، سيد بوارو، نحن في خدمتك. لقد فهمت أن لديك معلومات في غاية الأهمية تريد إطلاعنا عليها.

- نعم يا سيدي. في هذا العالم منظمة واسعة في الجريمة رؤوسها أربعة أفراد اسمهم «الأربعة الكبار». رقم «١» رجل صيني اسمه لي شانغ ين، ورقم «٢» هو المليونير الأمريكي آبي ريلاند، ورقم «٣» امرأة فرنسية، أما رقم «٤» فلديّ من الأسباب ما يدعوني إلى الاعتقاد بأنه الممثل الإنكليزي الغامض كلود داريل. وهؤلاء الأربعة قد اتحدوا لكي ينشروا الفوضى ويقوّضوا النظام الاجتماعي القائم في العالم ويستبدلوا به نظاماً استبدادياً تكون لهم من خلاله السيطرة.

همس الفرنسي: مستحيل أن يتورط ريلاند في شيء كهذا... الفكرة خيال بالتأكيد.

- استمع يا سيدي أسرد عليك بعض أفعالهم.

كان الوصف الذي قدّمه بوارو للأمر ساحراً، وقد كنت

أعرف كلامه تفصيلاً لكنه أثارني من جديد وأنا أسمع وصف مغامراتنا الخطيرة.

نظر السيد ديسجارديو في صاحبه كراوثر بعد أن أنهى بوارو حديثه، وأجاب كراوثر على النظرة: نعم يا سيد ديسجارديو، يجب علينا أن نُقرّ بوجود الأربعة الكبار. لقد سَخِرت سكوتلانديارد من ذلك في البداية وزعم الشرطة أن السيد بوارو يبالغ كثيراً، غير أني - شخصيّاً - أشعر بأن كلامه صحيح، وقد أُجبر الشرطة وسكوتلانديارد على التسليم بأكثر هذه الفرضيّات.

بيّن بوارو لهما عشر نقاط بارزة طلب مني أن لا أعلنها، وتضمنت الكوارث التي أصابت الغواصات وسلسلة حوادث الطائرات وهبوطها الإجباري، وحسب كلام بوارو كانت جميعاً من فِعل الأربعة الكبار، وشهد بأن عندهم أسراراً علمية لا يعرفها العالم كله، وهذا ما جعل رئيس وزراء فرنسا يسأل بوارو سؤالاً كنت أنتظره: قلت إن العضو الثالث من هذه المنظمة امرأة فرنسية، هل تعرف ما اسمها؟

- إنه اسم مشهور جداً يا سيدي، اسم ذائع الصيت. إنها ليست إلا السيدة أوليفر ذائعة الصيت.

حين ذُكر اسم العالمة الكبيرة خليفة مدام كوري قفز السيد ديسجارديو من كرسيه وقد احمرّ وجهه وقال: السيدة أوليفر؟ هذا سخيف! إن الذي تقوله إهانة.

هزّ بوارو رأسه بلطف لكنه لم يُجبه. ونظر ديسجارديو إليه مذهولاً لبضع دقائق، ثم التفت إلى وزير الداخلية وضرب على جبينه بصورة ذات دلالة. قال: السيد بوارو رجل عظيم، لكن حتى العظماء يصيبهم الهوس أحياناً، هذا معروف، أليس كذلك يا سيد كراوثر؟

صمت وزير الداخلية قليلاً ثم أجابه بلسان ثقيل: لا أدري، كنت دائماً وما زلت أثق بالسيد بوارو، لكن هذا جدير بالملاحظة.

ديسجارديو: لي شانغ ين أيضاً، من ذا سمع به من قبل؟

وجاء الجواب من السيد إنغليز على غير توقع: أنا سمعت.

حدق إليه الرجل الفرنسي ثم نظر بهدوء كأنه وثن صيني، وأوضح وزير الداخلية: السيد إنغليز هو أعظم مرجع لدينا في شؤون الصين.

قال إنغليز: لقد ظننت أنني الرجل الوحيد في إنكلترا الذي يعرف عنه، إلى أن جاءني السيد بوارو. لا تخطئ يا سيد ديسجارديو، في الصين رجل واحد ذو أثر اليوم، لي شانغ ين، وقد يكون أذكى دماغ في العالم اليوم على الإطلاق.

جلس السيد ديسجارديو كالمصعوق، لكنه ملك قواه وقال: ربما يصح شيء مما تقول يا سيد بوارو، ولكنك مخطئ

بالتأكيد فيما يتعلّق بالسيدة أوليفر... إنها ابنة فرنسا المخلصة للعلم.

هزّ بوارو كتفيه استهجاناً ولم يجب.

ران الصمت بعض الوقت، ثم نهض صديقي وعليه ملامح الوقار قائلاً: هذا كل ما أردت قوله يا سادة. إنني أحذركم، لقد دار في خلدي أنكم ربما لا تصدقونني، لكنكم قد تصبحون أكثر حذراً. إن كلماتي ستدخل في الأعماق، وكل جديد يحدث سيؤكد لكم الحقيقة. كان ضرورياً أن أتحدث الآن إليكم فلعلي لا أستطيع لقاءكم بعد هذا اليوم!

سأله كراوثر وهو متأثر من وقاره الظاهر: تقصد...؟

- أقصد أنني أصبحت في خطر دائم منذ فضحتُ اسم رقم «٤»، سوف يسعى لتدميري بأي ثمن، وليس اسمه «المدمر» من فراغ أو ضعف يا سادة. أسلم عليكم، وإليك يا سيد كراوثر هذا المفتاح وهذا الظرف، كتبت كل ملاحظاتي عن القضية وأفكاري حول أحسن السبل لمواجهة الخطر الذي قد يعمّ العالم يوماً ما ووضعتها في خزانة، فإن قُتلتُ يا سيد كراوثر فأنت صاحب الحق بالتصرف بتلك الأوراق. يوماً طيباً.

* * *

خرجنا وخرج إنغليز معنا، وقال بوارو ونحن نسير: ما خاب ظني في المقابلة، لم أتوقع إقناع ديسجارديو، لكنني

ضمنت أنني إذا مت فإن معرفتي لا تموت، لقد أقنعت واحداً أو اثنين... لا بأس.

قال إنغليز: إنني معك كما تعرف، وسوف أسافر إلى الصين إن نجوت بنفسي.

- هل هذا عمل حكيم؟

- لا، لكنه واجب، وعليّ أن أعمل ما أستطيع.

- آه، إنك رجل شجاع، ولو لم نكن في الشارع لعانقتك.

ظننت أن إنغليز بدا مطمئناً، وهدر قائلاً: قد لا أكون في خطر وأنا في الصين أكثر من الخطر الذي تواجهه أنت في لندن.

- ربما، أرجو أن لا يذبحوا هيستنغز أيضاً... إن هذا يزعجني كثيراً!

قاطعت حديثهما اللطيف لأقول إنني لا أعتزم تسليم نفسي للذبح.

وبعد ذلك بقليل تركنا إنغليز، فسرْنا بصمت بعض الوقت، لكن بوارو قطعه وقال عبارة مفاجئة تماماً، قال: أظن أن عليّ أن أُقحم أخي في هذه القضية.

قلت دَهِشاً: أخوك؟ لم أعرف أن لك أخاً من قبل.

- يا هيستنغز، ألا تعلم أن رجال التحري جميعاً لهم إخوة؟

بوارو له طريقة عجيبة أحياناً تجعل المرء في حيرة لا يدري أجادٌّ هو أم هازل! سألته وأنا أحاول أن أوافقه: وما اسم أخيك؟

- أشيلي، وهو يعيش قرب منتجع صحي في بلجيكا.

- وماذا يعمل؟

- لا شيء؛ لأنه مريض. لكن قدرته ليست دون قدرتي.

- وهل يشبهك؟

- أجل، لكنه ليس أنيقاً ويحلق شاربه.

- أهو أكبر منك؟

- لقد صادف أنه وُلِدَ في نفس اليوم الذي وُلِدت فيه.

صحت مندهشاً: **توأمان؟!**

- تماماً يا هيستنغز، إنك تقفز إلى النتيجة الصحيحة بدقة. ها نحن قد عدنا إلى البيت ثانية، دعنا نشتغل في الحال بتلك القضية السهلة، قضية عقد الدوقة.

* * *

لكن قُدِّر لقضية عقد الدوقة أن تتأجل بعض الوقت، فقد كان عندنا قضية من نوع آخر، فما أن دخلنا إلى البيت حتى جاءت السيدة بيرسون وأخبرتنا أن ممرضة اتصلت وأنها تريد رؤية بوارو.

دخلنا فوجدناها تجلس على مقعد كبير تقابل النافذة. امرأة جميلة في ربيع العمر في زيّ كُحليّ، وكرهت الحديث في المسألة قليلاً لكن بوارو طمأنها فأخذت تحكي قصتها: أرسلني مستشفى لارْك سيتر هود لكي أمرّض عجوزاً في هيرتفوردشير اسمه السيد تيمبلتون، وكان بيته يثير البهجة وأهله فرحين. الزوجة، السيدة تيمبلتون، أصغر كثيراً من زوجها، وله ابن من زواجه الأول يعيش هناك، ولكنه لم يكن على وفاق دائم مع زوجة أبيه، وهو لم يكن مختلاً تماماً ولكنه من النوع بطيء التفكير. حسناً، لقد كان العجوز مريضاً، وبدا لي مرضه منذ البداية غامضاً، وفي ذاك الوقت بدا سليماً معافى، ثم - فجأة - أصابته نوبة معويّة مع ألم وتقيّؤ، لكن طبيبه بدا راضياً عن حالته ولم أستطع أن أقول شيئاً، بيْد أنني لم أملك نفسي من التفكير في حالته، ثم...

سكتت واحمرّ وجهها، وقال بوارو: حدث شيء أثار شكوكك؟

- نعم.

ثم سكتت وقد بدا أن الاستمرار صار صعباً عليها.

- عرفتُ أن الخدم ينقلون كلاماً أيضاً.

- عن مرض السيد تيمبلتون؟

- آه! لا، بل عن هذا الشيء الآخر.

- السيدة تيمبلتون؟

- نعم.

- ربما عن السيدة تيمبلتون مع الطبيب؟

كان بوارو ذا حاسة خارقة في هذه الأمور. ألقت الممرضة عليه نظرة شكر وأكملت: كانوا ينقلون كلاماً، ثم ذات يوم رأيتهما بعيني في الحديقة.

توقفت المسألة هكذا. لقد كانت زبونتنا في كرب شديد لأنها انتهكت الحشمة، فلم نسألها ماذا رأت حياء، لكنها حتماً رأت ما فيه برهان.

- النوبة ساءت وساءت، الدكتور تريفيز زعم أن كل ما يصيب العجوز طبيعي متوقع وأنه ربما لا يعيش طويلاً، لكني لم أرَ شيئاً من هذا أبداً من قبل طوال خبرتي في التمريض، بل بدا لي أنه يشبه شكلاً من...

أطرقت مرة أخرى وهي مترددة، فتدخّل بوارو مساعِداً: التسمم الزرنيخي؟

هزّت رأسها موافقة.

- والمريض قال بعد ذلك شيئاً عجيباً، قال: سيقتلونني أربعتهم، سيقتلونني!.

- ماذا؟

- كانت هذه هي كلمته يا سيد بوارو، كان يكابد ألماً عظيماً آنذاك ولا يعي - على الأغلب - ما يقول.

- ماذا تظنين معنى قوله: «أربعتهم»؟

- لست أدري. لعله كان يقصد زوجته وابنه والطبيب والآنسة كلارك صاحبة زوجته، ربما كان يتوهم أنهم - جميعاً - متحدون عليه.

- نعم، ربما... وماذا عن الطعام؟ ألم تأخذي حِذْرك في شأنه؟

- إنني دائماً أفعل ما أستطيع، لكن السيدة تيمبلتون تلح أحياناً كي تطبخه هي بيدها، ثم أحياناً أكون في عطلة.

- تماماً، وأنت لست على يقين من الأمر لكي تبلغي الشرطة؟

أظهر وجه الممرضة خوفها عند هذا السؤال، ثم مضت قائلة: أصابت السيد تيمبلتون نوبةٌ بعد شربه صحناً من المرق، فأخذت حُثالة المرق وأحضرتها معي. لقد ألغيت اليوم زيارة أمي المريضة من أجله.

أخرجت قنّينة مُلئت سائلاً قاتماً وأعطتها بوارو الذي قال: أحسنتِ يا آنسة، سوف نحللها الآن، وإذا رجعت لنا بعد ساعة فسنكون قد حسمنا شكوكك.

كتب بوارو اسمها وبعض المعلومات عن مؤهلاتها ثم سطر رسالة وبعثها مع قنينة المرق. وبينما كنا ننتظر النتيجة كان بوارو يسلي نفسه بالتحقيق في أوراق الممرضة مما أدهشني، فقال: أنا أعمل جيداً يا صديقي كي أكون حَذِراً، لا تنسَ أن الأربعة الكبار يتعقبوننا.

عرف بوارو أن اسمها مابل بالْمر وكانت تعمل في معهد لارك. تُرى لماذا أُرسلتْ إلى تيمبلتون؟ قال وعينه تلمع: حسناً، والآن ها هي بالمر قد رجعت وها هو بيان التحليل.

- هل فيه زرنيخ يا سيد بوارو؟

هز بوارو رأسه ينفي وهو يطوي الورقة مرة أخرى: لا

دهشت أنا والممرضة كلانا كثيراً، وأكمل بوارو: ليس فيه زرنيخ **لكن فيه أنتيمون**. سنذهب حالاً إلى هيرتفوردشير، أدعو الله أن لا نكون متأخرين.

* * *

لقد قرر بوارو أن يقدم نفسه كرجل تحرٍ، لكن حجته

الظاهرة أنه أتى يسأل السيدة تيمبلتون عن خادمة كانت تعمل عندها ويزعم أنّ لها علاقة بسرقة جواهر.

وصلنا بيتهم المسمى «إلمستيد» في ساعة متأخرة بعدما سمحنا للممرضة أن تسبقنا بعشرين دقيقة حتى لا تثار شكوكٌ حول وصولنا معاً.

السيدة تيمبلتون امرأة طويلة عَبوس يبدو في عينيها القلق. استقبلتنا ولاحظتُ مسحةً من الخوف سرت على وجهها عندما أعلن بوارو عن هويته، لكنها أجابت سؤاله في شأن الخادمة بجلد، ثم - لكي يختبرها - بدأ بوارو حديثه في تاريخ طويل لقضية تسمم وصفتها امرأة مذنبة. عيناه لم تفارقا وجهها وهو يتحدث وقد حاولت هي كبْت هيجانها الذي كان يزيد، ثم - فجأة - أسرعت من الغرفة بعذر ضعيف.

لم نُترَك وحدنا طويلاً، فقد دخل علينا رجل قوي الجسم شاربه أحمر خفيف وعلى أنفه نظارة، وقدم نفسه قائلاً: أنا الدكتور تريفيز. طلبتْ مني السيدة تيمبلتون أن أعتذر لكما فهي في حال سيئة، إنها متوترة بسبب قلقها على زوجها، وقد نصحتُ لها بأن تذهب للنوم حالاً، لكنها ترجوكما أن تبقيا. لقد سمعنا بك يا سيد بوارو ونريد أن ننتفع بحضورك... ها هو ميكي.

دخل علينا فتى بطيء الحركة يدل وجهه المدوّر وحاجباه

المرتفعان على حماقة ودهشة دائمة، وابتسم بصورة عجيبة وهو يصافحنا. يبدو أنه كان ذلك الابن «بطيء التفكير».

وقمنا جميعاً لوجبة العشاء، وعندما انصرف الدكتور ليأتي ببعض الطعام صارت ملامح وجه الفتى متغيرة بصورة مخيفة، ومال إلى الأمام وهو يحدق إلى بوارو وقال وهو يهز رأسه: أنت جئت من أجل أبي، أعرف... أعرف أشياء كثيرة، لكنْ لا أحد يظنني أعرف. أمي ستفرح حين يموت أبي وتستطيع أن تتزوج الدكتور تريفيز. إنها ليست أمي... أنا لا أحبها.

كان الأمر مرعباً، ومن حسن الحظ أنْ عاد الدكتور تريفيز قبل أن يلفظ بوارو كلمة معه، وكان علينا أن ننشغل بحديث آخر.

وفجأة، أسند بوارو ظهره إلى الكرسي وجعل يتأوّه ووجهه يتلوى من الألم، وصرخ الدكتور: سيدي العزيز، ماذا أصابك؟

- تشنج مفاجئ... إنني معتاد عليه. لا، لا أحتاج مساعدة منك يا دكتور، هل يمكن أن أستريح في الطابق الأعلى؟

قُبِل طلبه فوراً وصحبتُه إلى الأعلى حيث سقط على سريره وهو يئن بشدة. لقد ذهلت قليلاً لكنني فهمت بسرعة أن بوارو كان يمثّل وأن غايته أن يُترَك وحده في الطابق الأعلى بجوار غرفة المريض، وقد كنت مستعداً حين قفز واقفاً في اللحظة

التي صرنا فيها وحدنا وهو يقول: أسرع يا هيستنغز، النافذة... اللبلاب هناك في الخارج، نستطيع أن ننزلق عليه إلى الأسفل لنهرب قبل أن يشكّوا في غيابنا!

- ننزلق إلى أسفل؟!

- أجل، لا بد أن نخرج من هنا حالاً. هل رأيته في العشاء؟

- الطبيب؟

- لا، بل تيمبلتون الفتى... **عادته العجيبة في أكل الخبز!** ألا تذكر ما قالته مونرو لنا؟ قالت إن كلود داريل كانت فيه عادة تفتيت الخبز على الطاولة ليأكل لب الرغيف. إنها مؤامرة محكمة يا هيستنغز، وهذا الفتى المعتوه هو عدونا الخبيث... رقم «٤». أسرع!

انزلقنا على نبات اللبلاب ونزلنا بسكون، وبالكاد أدركنا قطار الساعة الثامنة والنصف الذي ركبناه عائدَين إلى لندن.

قال بوارو متأمّلاً: مؤامرة! تُرى كم واحداً منهم شارك فيها؟ أشك أن أسرة تيمبلتون جميعاً ليسوا سوى عملاء للأربعة الكبار. هل أرادوا هكذا بسهولة أن نقع في شركهم أم أنها كانت مؤامرة أكثر مكراً؟ هل كانوا... ماذا؟ إنني أتساءل!

ظل يفكر طويلاً. وعندما وصلنا إلى مسكننا أبقاني عند

باب غرفة الجلوس قائلاً: تنبّه يا هيستنغز، عندي شكوك، دعني أدخل أولاً

دخل، ثم ذهب يدور حول الغرفة كأنه قطة غريبة بحذر وهدوء تام، وراقبته قليلاً وأنا في مكاني بجانب الحائط، ثم قلت وقد نفد صبري: كل شيء على ما يرام يا بوارو.

- عسى أنه كذلك، لكن دعنا نتأكد.

- سأشعل ناراً وأُدخن بغليوني على كل حال... ها هي أعواد الثقاب قد تركتها أنت هذه المرة ولم تعدها إلى مكانها، وهو الأمر الذي كنت تعيبه عليّ.

مددت يدي فسمعت صرخة بوارو، قفز نحوي، ولمستْ يدي علبة الكبريت، ثم... وميض من اللهب الأزرق... ضربة على الأذن... وظلام!

* * *

وعيت لأجد صديقنا الدكتور ريدغوي يجثو على ركبته فوقي تلمح في وجهه الطمأنينة، قال: كن هادئاً، لقد وقع حادث وأنت بخير.

- وبوارو؟

- أنت في بيتي، اطمئن.

شعرت بالخوف... تهرّبه من الجواب ألقى في نفسي خوفاً رهيباً. هتفت: بوارو؟ أين بوارو؟

أدرك أن عليّ أن أسمع جواباً فقال: لقد نجوت بمعجزة، **أما بوارو فلم ينجُ!**

انفجرت صرخة من بين شفتي: لم يمت... لم يمت؟

حنى ريدغوي رأسه، وجلستُ أنا وقلت بضعف: ربما يكون بوارو قد مات... لكن روحه... ستعيش! سأتابع عمله. الموت للأربعة الكبار!

ثم سقطت على ظهري فاقداً الوعي.

* * *

facebook.com/groups/agathalovers/

الفصل السادس عشر

الصيني يحتضر

لا أحتمل الكتابة عن تلك الأيام بوارو مات! لقد كان في علبة الكبريت لمسة شيطانية، كان محتماً أن تلفت أعوادها غير المرتّبة اهتمامه فيسرع لكي يُنسّق أعوادها المبعثرة، وهكذا تسبب اللمسة انفجاراً.

الحق أنني أنا الذي عجلت في الكارثة، وهذا ملأني ندماً لا ينفع ولا يُدفَع!

قال الدكتور ريدغوي إن نجاتي كانت معجزة، لكنّ ارتجاجاً طفيفاً أصابني، وبعد أن استرجعت وعيي مشيت مترنحاً إلى غرفة مجاورة قبل حلول ظلام اليوم الذي تبع الحادث، ورأيت بحزن عميق تابوتاً من خشب الدردار ترقد فيه بقايا واحدٍ من أعظم الرجال الذين عرفتهم.

ومنذ أول لحظة عاد فيها وعيي كان عندي هدف واحد... الانتقام لموت بوارو وأن أصيد الأربعة الكبار بلا رحمة. وظننت

أن الدكتور ريدغوي يفكر مثلي، لكن الطبيب الطيب بدا فاتراً ولم أَدْرِ لماذا؟

"عُدْ إلى أمريكا الجنوبية"، هكذا ظل ينصحني. لماذا؟ لقد قال إن بوارو الخارق فشل، فهل أنجح أنا؟

لكنني أصررت وتجاهلتُ كل تشكيك في قدراتي. لقد عملت مع بوارو طويلاً فعرفتُ منه أسلوبه، وشعرتُ بالقدرة التامة على متابعة العمل الذي رسمه. لقد قُتل صديقي قتلة قاسية، فهل عليّ أن أعود إلى أمريكا دون جهد لتقديم قتلته أمام العدالة؟

قلت هذا كله وأكثر منه لريدغوي الذي كان يُنصت لي قبل أن يعلّق قائلاً: مهما يكن فإنني أنصحك، ولو كان بوارو نفسه بيننا لكان ألحّ عليك بالعودة. أتوسل إليك باسمه يا هيستنغز أن تترك هذه الفكرة المتهورة وترجع إلى مزرعتك.

لكنني أصررت على جوابي، فلم يقل شيئاً وهزّ رأسه بأسف.

* * *

مضى شهر استعدتُ فيه عافيتي، وعند نهاية شهر نيسان (أبريل) سعيتُ وعقدتُ لقاء مع وزير الداخلية، فكان رأي السيد كراوثر يذكرني بكلام الدكتور ريدغوي، ففي حين كان يشكرني كان يرفض عرضي بلطف وحذر. أوراق بوارو صارت

في حوزته وقد أكّدَ لي أنه سيتخذ كل عمل جائز لمواجهة الخطر الذي يدنو ويقترب.

ومع هذا العزاء البارد حُملت على الاقتناع. أنهى السيد كراوثر اللقاء بأن ألحّ عليّ بالعودة إلى أمريكا.

لقد رأيت كل المسألة لا ترضيني، والآن يجب أن أصف جنازة بوارو.

كان احتفالاً وقوراً مهيباً، وكلمات الإجلال التي قيلت كانت فخمة جزيلة. لقد جاء المعزّون من أماكن شتّى وتوافدوا إلى المكان الذي اختاره صديقي لنفسه، بلد إقامته. وغلبني الحزن وأنا أقف عند طرف المقبرة وذكرت جميع تجاربنا المختلفة والأيام السعيدة التي عشناها معاً.

في بداية شهر آيار (مايو) رسمتُ خطة الحملة: لن أفعل خيراً من اتّباع خطة بوارو في الإعلان من أجل جذب كلود داريل. ونشرت إعلاناً في عدد من الصحف الصباحية، وكنت أجلس في مطعم صغير في سوهو وأرى تأثير الإعلان من خلال قراءتي للصحف.

وفجأة صدمتني فقرة صغيرة صدمةً عنيفة: "اختفاء السيد جون إنغليز من السفينة «شنغهاي» بعد مغادرتها ميناء مرسيليا بقليل، ورغم أن الجو كان هادئاً تماماً لكن يُخشى أن الرجل

المسكين قد سقط من السفينة"... وانتهت الفقرة بحديث مقتضب حول خدمة السيد إنغليز الطويلة والمميزة في الصين.

كان الخبر محزناً، وأدركت أن وراء موت إنغليز دافعاً شريراً. لم أصدّق أبداً النظرية القائلة بأنه مات بحادث، قطعاً كان موته من فعل الأربعة الكبار الملعونين!

وبينما كنت مذهولاً من المصيبة أقلّب المسألة كلها في دماغي داخلني خوف من سلوك الرجل الجالس مقابلي، ولم أكن قد أعرته كبير اهتمام. كان نحيفاً أسمر متوسط العمر شاحب البشرة ذا لحية خفيفة، وجلس مقابلي بهدوء تام حتى إنني لم أحسّ بقعوده، لكنه الآن صار يفعل فعلاً غريباً قطعاً: مال إلى الأمام ونثر عمداً أربع كومات من الملح حول حافة صحني، ثم قال بصوت كئيب: اسمح لي: إنهم يقولون إن تقديم الملح هو من نوع المواساة للغريب، أرجو أن تكون فهمت.

صنع -في دلالةٍ مؤكدة- عند صحنه ما فعله لي... إن الرمز «٤» كان واضحاً!

نظرتُ إليه بإمعان، ولم أستطع أن أرى أنه يشبه تيمبلتون الصغير ولا جيمس الخادم أو أيّاً من الشخصيات الأخرى المختلفة التي صادفتنا، لكنني كنت جازماً بأنني أواجه رقم «٤» المروع نفسه. الصوت كان فيه شبهٌ ضعيف من صوت الرجل الغريب ذي المعطف المزرّر الذي زارنا في باريس.

ونظرتُ حولي متردّداً حول ردّ فعلي المناسب، وبدا أنه يقرأ أفكاري فتبسم وهزّ رأسه بلطف، وقال: لا أنصحك بهذا، تذكر ما حدث من العجلة في باريس. طريق هروبي مفتوح تماماً، أنت تضمر الشر قليلاً يا كابتن هيستنغز.

قلت وأنا أختنق من الغضب: تباً أيها الشيطان!

- غضبان... أنت تافه غضبان. لا بد أن صاحبك الراحل أخبرك بأن الرجل الذي يظل هادئاً يجني دائماً منفعة عظيمة.

صحتُ فيه: أتجرؤ أن تتكلم عن الرجل الذي قتلته بتلك الطريقة القذرة؟

قاطعني قائلاً: جئتُ هنا من أجل هدف سلمي، لكي أنصحك بأن تعود إلى أمريكا الجنوبية فوراً. إن فعلت ذلك فستنتهي المسألة بقدر ما يعني ذلك الأربعة الكبار ولن نؤذيك أنت ولا زوجتك، أعدك بذلك.

ضحكت بازدراء وقلت: وإذا رفضت؟

- هذا ليس أمراً، دعنا نَقُلْ إنه... تحذير. التحذير الأول، أنصحك أن لا تضيعه.

ثم نهض وانسلّ خارجاً بسرعة نحو الباب قبل أن أقدّر نيته. لحقته لكن حظي كان تعيساً، فقد اصطدمت برجل بدين سدّ الطريق، وحين فككت نفسي منه كان طريدي يجتاز مدخل

الباب. وقابلني نادل يحمل كومة كبيرة من الصحون صدمني أيضاً دون إشعار، وما أن وصلت الباب حتى كان الرجل قد اختفى.

كان اعتذار النادل سمجاً والرجل البدين جلس بهدوء على طاولةٍ وطلب غداء. ربما كان كلا الحادثين مصادفة، لكنني كنت أعرف جيداً أن عيون الأربعة الكبار كانت في كل مكان.

لقد شدّني تحذير الرجل، لكنني سأعمل أو أموت من أجل قضية صالحة.

ولم ترِدني إجابات مفيدة عن الإعلانات، إنما وردتني إجابتان من ممثلين عملا مع داريل قليلاً ولم يكونا يعرفانه عن قرب ولم يذكرا هويته أو مكانه. ثم مرّت عشرة أيام ولم تظهر علامة أخرى من الأربعة الكبار، وكنت أقطع حديقة هايد بارك وأنا حيران أفكر حين ناداني صوت امرأة جاهر، يبدو أنها أجنبية.

اجاثا كريستي & كتاب رواية

- أنت الكابتن هيستنغز، أليس كذلك؟

توقفت سيارة أجرة فاخرة بجانب الرصيف وأطلت منها امرأة تلبس ثوباً أسود وعقداً من اللؤلؤ رائعاً. عرفتها؛ الكونتيسة فيرا روساكوف، جندية الأربعة الكبار.

كان لبوارو ولع خفي بالكونتيسة، شيء ما فيها جذب

الرجل الضئيل، فكان في لحظات الحماسة يقول إنها امرأة تساوي ألفاً من النساء ولو كانت تعمل ضدنا.

قالت: آه، لا تعبر الشارع. عندي شيء مهم جداً أريد أن تسمعه، وإياك أن تسعى إلى اعتقالي لأن ذلك سيكون غباء منك. أنت غبي لأنك عازم أن لا تطيع تحذيرنا، وهذا هو تحذيرنا الثاني جاءك معي: غادر إنكلترا في الحال، قعودك لا يفيد، لن تجني شيئاً هنا أبداً.

- كلكم مهتمون بإخراجي من البلد، عجباً!

هزت روساكوف كتفيها استهجاناً وقالت: أنا أظن أنك أحمق، وكنتُ سأتركك هنا تعمل بسعادة، لكن الرؤساء يخافون كلمة منك ربما تساعد أولئك الذين هم أكثر ذكاء منك.

كظمتُ غيظي. كلمتُها هذه أزعجتني لأن فيها إشارة استخفافٍ بي. قالت: هذا ما سوف يكون، من السهل أن يقتلوك، لكنني أُشفق على الناس أحياناً. إنني أُناشدك... إن لك زوجة صغيرة حسناء في مكان ما، أليس كذلك؟ ولسوف يسعد الرجل الضئيل في قبره أنك لم تمتْ. لقد كان يعجبني، كان ذكياً! لو لم تكن قضية أربعة مقابل واحد لعظمناه كثيراً... لقد كان بوارو أستاذي، وقد أرسلت إكليلاً إلى الجنازة إعلاناً بإعجابي، إكليلاً كبيراً من الورود القرمزية التي أحبّها.

استمعتُ إليها في صمت وحقد وهي ما زالت تتكلم: أنت

كالبغل حين يحرك أذنيه ويرفس. حسناً، لقد أبلغتك تحذيري فتذكّر، الإنذار الثالث سيأتي من يد المدمر.

ثم أشارت للسائق فانطلقت السيارة، ولاحظت رقمها لكن لا أرجو أملاً من هذا؛ إن الأربعة الكبار لا يتركون هذه التفصيلات.

ذهبتُ إلى البيت هادئاً قليلاً. لقد عرفتُ من السيل الجارف من كلماتها حقيقة واحدة: حياتي في خطر! لا، لن أتخلى، بل سأمضي بحذر شديد وأحترس.

وبينما أنا أعرض كل هذه الحقائق وأدرس خير طريقة في العمل رنّ الهاتف. رفعت السماعة: نعم، مرحباً... من يتكلم؟

ردّ علي صوت حادّ: مستشفى سينت غيلز. عندنا هنا رجل صيني طُعن بالسكين وأُحضر إلينا، لن يعيش طويلاً، وقد اتصلنا بك لأننا وجدنا في جيبه قصاصة ورق عليها اسمك وعنوانك.

- سأحضر فوراً.

كنت مذهولاً!

مستشفى سينت غيلز بجانب أحواض السفن، إذن فلعل الصيني يكون قد خرج لتوّه من سفينة... أم أن الأمر كله فخ؟ مهما يكن فربما يكون لشانغ ين يدٌ فيما يجري. لن تضرني زيارة

المستشفى، فعسى أن يبوح لي الصيني المحتضر بشيء أستنير به، لكنني سأتكلف الحماقة وأنا - في الواقع - يقظان.

وصلتُ المستشفى، وبعد أن عرّفت بنفسي قادتني بعض الممرضات فوراً إلى جناح الحوادث.

رأيت الصيني راقداً بلا حركة، جفناه مغمضان وصدره ينبض نبضاً ضعيفاً يدل على أنه ما زال يتنفس. وقف عنده طبيب وأصابعه تجس نبض الرجل، وهمس: كأنه ميت، هل تعرفه؟

- لا، لم أره من قبل أبداً.

- إذن ما شأن اسمك وعنوانك في جيبه؟ أنت الكابتن هيستنغز، أليس كذلك؟

- بلى، لكني لا أدري.

- عجباً، أوراقه تثبت أنه كان خادماً عند رجل يُدعى إنغليز، موظف مدنيّ مسرَّح، وأنت تعرفه، أليس كذلك؟

لقد رأيت خادم إنغليز من قبل، لكني لا أستطيع أن أميز صينياً عن آخر. لا بد أنه كان مع إنغليز في طريقه إلى الصين وبعد حصول الكارثة رجع هنا برسالة قد تكون خاصّة بي، يجب أن أسمع الرسالة.

سألت الطبيب: هل هو في وعيه؟ ألا يستطيع الكلام؟ السيد إنغليز كان صديقي القديم ولعل هذا المسكين قد أحضر

لي رسالة منه، إذْ يُعتقَد أن السيد إنغليز قد اختفى عن ظهر سفينة قبل عشرة أيام.

- إنه واعٍ لكنْ ربما لا يستطيع النطق، لقد فَقَدَ دماً كثيراً، أستطيع أن أعطيه حقنة منشطة لكننا عملنا كل ما وسعنا في هذا.

وحقنه الطبيب بإبرة تحت الجلد وبقيتُ عنده راجياً أن يتكلم كلمة واحدة أو إشارة ربما تكون مهمة عندي، ولكن الدقائق مرت ولم يتحرك.

وفجأة، خطرت ببالي فكرة مقلقة. ألم أكن قد وقعت في فخ؟ فلعل هذا الرجل انتحل شخصية خادم إنغليز وأنه في الحقيقة جندي للأربعة الكبار. ألم أقرأ مرة أن كهنة في الصين يقدرون أن يتظاهروا بالموت؟ أو أبعد من ذلك: لعل لي شانغ ين أمرَ جماعة من جنوده الذي يحبون أن يتظاهروا بذلك... لا بد أن أحذر.

في تلك اللحظة تحركَ الرجل في سريره. فتح عينيه وهمس كلاماً وعينُه عليّ، ولم يقُمْ بأي حركة تدل على أنه عرفني، لكني أدركتُ حالاً أنه يريد أن يكلمني، وسواء كان صديقاً أو عدواً فينبغي أن أستمع إليه.

انحنيت فوق السرير لكنني لم أفهم شيئاً من صوته المتهدج.

سمعت كلمة «هَانْد» ولم أفهمها، ثم سمعت كلمة أخرى: «لارْغو». وحدقت إليه بذهول وسألته: «هانْدِلْز لارْغو»؟

طرف أجفانه بسرعة كأنه وافق، ثم أضاف كلمة أخرى إيطالية: «كارّوزا».

ثم تراجع فجأة. ودفعني الطبيب جانباً، كان كل شيء قد انتهى، فالرجل قد مات.

خرجت مرة أخرى إلى الهواء وأنا في حيرة. إذا كنت أذكر «كارّوزا» بشكل صحيح فمعناها «باص»... ماذا وراء هذه الكلمات القليلة؟ الرجل صيني وليس إيطالياً فلماذا يتكلم الإيطالية؟ فإن يكن هذا هو خادم إنغليز فلا بد أن يعرف الإنكليزية... الأمر عجيب، يا ليت بوارو عندي لكي يحل هذه المشكلة!

* * *

وصلت إلى البيت فدخلتُ بعد أن فتحت الباب وصعدت ببطء إلى غرفتي، فوجدتُ على الطاولة رسالة. فتحتها فتحجرت في مكاني في الحال، كان بلاغاً من شركة محامين، وكانت الرسالة تقول:

سيدي العزيز،

حسب وصية موكِّلنا السيد هيركيول بوارو نُرسل إليك هذه الرسالة المرفَقة التي وصلتنا قبل أسبوع

من وفاته وفيها أنه يجب علينا أن نرسلها إليك في تاريخ معين بعد وفاته.

قلّبت الرسالة المرفَقة مرة تلو الأخرى... حتماً هي من بوارو، فأنا أعرف كتابته. وبقلب مُثقَل ولهفة فتحتها وقرأت فيها:

صديقي العزيز المحب،

لن أكون موجوداً لدى استلامك هذه الرسالة. لا تأسف عليّ ولكن اتبع أوامري: عند استلامك هذه الرسالة عد إلى أمريكا الجنوبية فوراً. لا تكن عنيداً، إنني لا أناشدك أن تُنجز هذه الرحلة من أجل العاطفة، بل إنها ضرورية؛ جزء من خطة هيركيول بوارو. ولعلك فهمت يا صديقي الذكي.

فلْيسقط الأربعة الكبار!

هيركيول بوارو

قرأت هذه الرسالة مراراً. شيء واحد كان واضحاً: لقد أعدّ الرجل المذهل لكل وجه حتى إن موته لم يضرب تسلسل خطته؛ أنا العضو المنفذ وهو العقل المدبر، أعدائي سوف يحسبون أنني أطعت تحذيرهم فلا ينشغلون بي، ثم أعود دون اشتباه فأدمرهم.

أرسلت برقية وحجزتُ على السفينة «أنزونيا» في طريقي إلى بيونس أيرس. وبعد أن غادرت السفينة المرفأ أحضر لي المضيف رسالة أخذها من رجل ضخم يلبس معطف فروٍ غادر

السفينة قبل أن تُرفَع ألواح المعابر الخشبية. وفتحتها... كان فيها كلمتان: أنت حكيم، رقم «٤».

وضحكتُ في نفسي.

* * *

البحر كان هادئاً واستمتعتُ بعشاء حسن، ورأيت - مثل سائر زملائي المسافرين - أن ألعب مباراة أو اثنتين في البريدج، ثم عدتُ ونمتُ كالقتيل، وهذا حالي كلما ركبت سفينة!

ثم صحوتُ من إحساسي بأنني كنت أهتز مراراً، فرأيت - وأنا مذهول - قبطاناً يقف فوقي. هتف: شكراً لله، صحوت أخيراً! هل تنام دائماً على هذه الهيئة؟

- ماذا في الأمر؟ هل أصاب السفينةَ شيء؟

- ظننتُ أنك تعرف... إنها أوامر قيادة البحرية. توجد مدمّرة تنتظرك لتأخذك معها.

- ماذا؟ في وسط المحيط؟

- ليس هذا شأني، لقد أرسلوا إلى السفينة شاباً يحل محلك، وقد أقسمنا جميعاً على السرية. هلاّ نهضت ولبست ثيابك؟

فعلت ما طُلِبَ مني وأنا عاجز عن كتمان عجبي. تم إنزال

قارب وحُملت إلى ظهر المدمرة، واستقبلوني بترحيب لكنني لم أفهم شيئاً. كانت أوامر القائد أن أنزل في بقعة ما على الساحل البلجيكي، وهناك تنتهي معرفته ومسؤوليته.

كل شيء كان كالحلم، لكن ما استقرّ في قلبي أن هذا لا بدّ أن يكون جزءاً من خطة بوارو. ينبغي أن أسير كالأعمى واثقاً من صديقي الذي مات!

هبطت في نقطة ما، وكانت هناك سيارة تنتظرني، وفي الحال عبرنا سهول فليميش المنبسطة. ونمت تلك الليلة في فندق صغير في بروكسل، ثم واصلنا المسير في اليوم التالي فدخلنا الغابات والجبال، وعرفت أننا على جبال الأردينز. وفجأة تذكرت أن لبوارو أخاً يعيش في منتجع، لكننا لم نذهب إليه.

تركنا الطريق الرئيسي وعرجنا ناحية الهضاب في مكان منعزل حتى وصلنا إلى قرية صغيرة فيها دارة منعزلة، وقفت السيارة أمام بابها الأخضر. ونزلت من السيارة، كان على مدخل الباب عجوز ينحني لي، وقال بالفرنسية: كابتن هيستنغز؟ أرجوك اتبعني.

وسار أمامنا عابراً القاعة، ثم فتح في نهايتها باباً كبيراً على مصراعيه ووقف جانباً لكي يسمح لي بالدخول.

طرفت عيناي قليلاً لأن الغرفة كانت من جهة الغرب وكانت شمس الأصيل تخترق الغرفة، ثم فتحت عيني فرأيت

رجلاً يمدّ يده إليّ. كان ذلك الرجل... آه، **مستحيل!** كيف؟ ولكن، نعم... صحت: **بوارو!**

ولم أحاول التهرّب من العناق الذي غمرني به.

- نعم، نعم، ليس سهلاً قتل بوارو.

- ولكن، بوارو... لماذا؟

- الحرب خدعة يا صديقي، الحرب خدعة. كل شيء الآن جاهز لانقلابنا الكبير!

- لماذا لم تخبرني؟

- لا يا هيستنغز، لم أتمكن؛ لأنك ما كان يمكن أن تمثّل دورك في جنازتي عندئذٍ بالاتقان الذي سارت به الأمور.

- لكن الذي كنت سأكشفه...

- لقد رسمت خطة من أجلك. بعد الانفجار خطرت لي فكرة لامعة وساعدني ريدغوي الطيب فيها: أنا ميت وأنت ستعود إلى أمريكا الجنوبية. لكن هذا - يا صديقي - ما لم تكن لتفعله، فكان عليّ في النهاية أن أدبر مسألة رسالة المحامي. لكن، على كل حال، ها أنت هنا، هذا هو الشيء العظيم، والآن نحن نستلقي هنا بعيدَين حتى تأتي لحظة الانقلاب الكبير الأخير... **الإطاحة بالأربعة الكبار.**

* * *

الفصل السابع عشر
رقم «٤» يظفر بحيلة

في معتزلنا الهادئ في جبال الأردينز كنا نراقب الأمور. كانت تصلنا الكثير من الصحف، وفي كل يوم كان بوارو يتلقى ظرفاً ضخماً، واضحٌ أنه يحتوي على تقرير من نوع ما.

لم يكن يريني هذه البيانات لكنني كنت أفهم من وجهه إذا كانت مرضية أو لا إنه لم يتزحزح عن عقيدته أن خطتنا هي التي سوف تنجح، وقال لي في أحد الأيام: لقد كنتُ في خوف دائم أن موتك يقف على عتبة بابي، وهذا جعلني غضبان، لكنني الآن راضٍ تماماً، ولو أنهم عرفوا أن الكابتن هيستنغز الذي نزل في الأرجنتين هو رجل غيره فإنهم سيظنون أنك تطوقهم بطريقة ذكية من عندك، ولن يجتهدوا في معرفة مكانك. هم مؤمنون بحقيقة واحدة... أنني قد مت، سوف يستمرون في العمل وينضجون خططهم.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك يكون بعث هيركيول بوارو، سأعود وأظهر في اللحظة الأخيرة وأحقق النصر العظيم!

لقد عرفت أن غرور بوارو (وهو درع من فولاذ) يصمد في كل الهجمات وأن حماسته لا تفتر.

- أنت ترى يا هيستنغز، إنها كالحيلة الصغيرة التي تلعبها بالورق: تأخذ الشباب الأربعة فتقسمهم وتقطع الورق وتخلطه، وهنا يعودون جميعاً معاً مرة أخرى. هذا هو هدفي: كنت أناضل مرة ضدّ واحد من الأربعة الكبار ومرة ضدّ واحد آخر، لكن دعني أجمعهم الآن جميعاً مثل الشباب الأربعة، ثم بعد ذلك أدمرهم جميعاً بانقلاب واحد.

- وكيف تنوي جمعهم معاً؟

- بانتظار اللحظة الأشدّ خطورة، سنبقى بعيدَيْن حتى يصبحوا جاهزين لأداء ضربتهم.

- هذا يعني انتظاراً طويلاً.

- أنت دائماً متعجّل يا هيستنغز الطيب. لا، لن يطول ذلك كثيراً، فالرجل الوحيد الذي كانوا يخافونه ابتعد عن طريقهم... شهران أو ثلاثة أشهر ليس أكثر.

ذكّرني كلامه بإنغليز وميتته المأساوية، ثم تذكرت أنني لم

أخبر بوارو عن الرجل الصيني الذي كان يحتضر في مستشفى سينت غليز. وأنصت إلى قصتي بانتباه شديد.

- خادم إنغليز، ها؟ والكلمات القليلة التي نطقها كانت إيطالية؟ هذا عجيب!

- هذا هو سبب شكوكي أنها ربما تكون مكيدة من الأربعة الكبار.

- أخطأت يا هيستنغز، أعمِلْ خلاياك الرمادية... إذا أراد عدوك خدعتك فإنهم حتماً سيجعلون ذلك الصيني ينطق بالإنكليزية نطقاً ركيكاً. لقد كانت الرسالة محكمة، أعدْ عليّ ما سمعته مرة أخرى.

- قبل كل شيء ردّد الكلمتين: «هانْدِلْز» و«لارْغو»، ثم قال: «كارّوزا». معناها: حافلة، أليس كذلك؟

- وماذا بعد؟

ثم قال: «كارا» (ربما كان اسم رجل ما أو اسم امرأة)، وقال بعدها «زِيا».

- إن «كارازِيا» مهمة جداً يا هيستنغز.

- لم أفهم.

- يا صديقي العزيز... الإنكليز لا يعرفون الجغرافيا.

- الجغرافيا؟

- أقول إن السيد توماس كوك ربما يكون هو الهدف مرة أخرى.

رفض بوارو أن يقول أي كلمة أخرى. كانت - من جانبه - حيلة تبعث على السخط، لكنني لاحظت أنه صار فكاهياً مرحاً كأنما سجل نقطة.

* * *

وسارت الأيام مملة. كانت في الدارة أعداد كبيرة من الكتب لكني كنت أضيق أحياناً بالخمول في حياتنا، وعجبتُ من هدوء بوارو، حتى كانت نهاية شهر حزيران (يونيو) الحد الأقصى الذي ضربه بوارو لهم حين وصَلَنا خبرٌ عن الأربعة الكبار.

وصلت سيارة إلى البيت في وقت مبكر من الصباح، وكان ذلك حدثاً غير عادي فنزلت مسرعاً لكي أشبع فضولي، فوجدت بوارو يكلم شاباً في مثل عمري ذا وجه مرح. وقدمني إليه قائلاً: هذا هو الكابتن هارفي يا هيستنغز، واحد من أعظم رجال استخباراتكم شهرة.

قال هارفي وهو يضحك: أخشى أنني لستُ مشهوراً أبداً.

- لستَ مشهوراً إلا بين هؤلاء الذين يعرفونك، معظم أصدقاء الكابتن هارفي يحسبونه رجلاً نذر نفسه للحيل.

ضحكنا نحن الاثنين، وقال بوارو: هيا إلى العمل. إذن فأنت ترى أن الوقت قد حان؟

- حتماً يا سيدي. لقد عُزلت الصين أمس سياسياً، ماذا يجري فيها؟ لا أحد يعلم شيئاً، كتمانٌ طويل وصمت.

- إذن فقد كشف لي شانغ ين خططه... ماذا عن الآخرين؟

- آبي ريلاند وصل إنكلترا قبل أسبوع وطار إلى أوروبا أمس.

- والسيدة أوليفر؟

- غادرت باريس الليلة الماضية.

- إلى إيطاليا؟

- إلى إيطاليا يا سيدي، كلاهما ذهب - حسب معلوماتنا - إلى المنتجع الذي أشرتَ إليه. لكن كيف عرفت أن...؟

- ذاك من عمل هيستنغز.

نظر هارفي إليّ بتقدير، فشعرتُ بعدم الارتياح. وقال بوارو: إذن فكل شيء يمشي بنظام.

ثم صار وجهه شاحباً جادّاً وأكمل يقول: لقد حان الوقت، هل تمت كل الإعدادات؟

- كل شيء أمرت به تم تنفيذه. إن حكومات إيطاليا وفرنسا وإنكلترا تقف وراءك.

قال بوارو باسترخاء: ذلك حلف جديد... أنا مسرور لأن ديسجارديو اقتنع أخيراً، جيد، إذن سوف نبدأ، أو -على الأصح- سوف أبدأ. أنت ستبقى هنا يا هيستنغز، نعم، أرجوك، حقاً إنني لجادّ يا صديقي.

صدّقته، لكني لم أرضَ بأن أبقى هناك.

جدالنا كان قصيراً وحاسماً. ثم كنا في القطار إلى باريس حين قال: إن لك دوراً يا هيستنغز؛ قد أفشل من دونك، لكني شعرتُ أن من واجبي أن أُلحّ عليك بالبقاء.

- إذن ففي الأمر خطر؟

- حيث يكون الأربعة الكبار يكون الخطر يا صديقي.

وصلنا باريس، وركبنا سيارة إلى جير دي ليست، ثم أعلن بوارو عن وجهته. كنا متجهين إلى بولزانو الإيطالية.

وحين خرج هارفي من مقصورتنا سألت بوارو لماذا قال إن كشف موعد اللقاء كان من عملي؟

- لأن إنغليز استطاع أن يعلم شيئاً ويرسله إلينا مع خادمه، فكيف عرف ما عرف؟ إننا متجهون يا صديقي إلى «كاريرسي»، الاسم الإيطالي الجديد للاغودي كاريزا، هل فهمت الآن من

أين جاءت كلمات «كارازيا» و«كاروزا» و«لارغو»؟ أما كلمة «هاندلز» فمن خيالك.

- كاريرسي؟ لم أسمع بها من قبل.

- ألم أقل إن الإنكليز لا يعرفون الجغرافيا؟ هي منتجع معروف، منتجع صيفي جميل جداً على ارتفاع أربعة آلاف قدم في دومولیت.

- وهناك يكون لقاء الأربعة الكبار؟

- ذاك مقر قيادتهم؛ هناك يعتزلون العالم ويُصدرون أوامرهم. لقد تحققت من هذا الأمر، هناك عدد من المنشآت الصخرية يجري تنفيذها، ولعل الشركة التي تنفذها شركة إيطالية صغيرة يسيطر عليها آبي ريلاند. أُقسم أن بيتاً تحت الأرض قد تم حفره في قلب الجبل، بيت مخبوء يصعب الوصول إليه! ومن هناك يصدرون أوامرهم بجهاز لاسلكيّ لأتباعهم الذين ينتشرون بالآلاف في كل بلد، ومن ذلك الوكر سيخرج حكّام العالم المستبدّون الجدد... أعني: **كانوا سيخرجون** لو لم يكن هيركيول بوارو موجوداً!

- حقاً تقول يا بوارو؟ وماذا عن الجيوش وآلات الحضارة؟

- إن الخطر في تجارب السيدة أوليفر. لقد نجحت في تحرير الطاقة الذرية وتسخيرها لخدمة أغراضها، وكانت

تجاربها بالنيتروجين مشهورة جداً، وقد جربت أيضاً تركيز الطاقة اللاسلكية لتركيز إشارة لاسلكية ذات ذبذبة عالية على بقعة ما وحققت تقدماً أبعد بكثير مما زعمته. ولا تنسَ ثروة ريلاند وعقلَ لي شانغ ين: أعظم عقل إجرامي في التاريخ!

كلماته جعلتني أفكر. أحياناً يبالغ بوارو في لغته، لكني عرفت لأول مرة أيّ صراع يائس كنّا فيه.

وفي الحال عاد هارفي وانضم إلينا وواصلنا الرحلة، فوصلنا إلى بولزانو ظهراً، ثم ركبنا سيارة من السيارات الزرقاء الموجودة في ساحة البلدة. ورغم حرّ النهار كان بوارو ملفعاً بمعطف كبير ووشاح حتى عينيه وشحمتَي أذنيه، ربما من الحذر أو هو خوف زائد من البرد.

وتمت الرحلة في ساعتين. كانت رائعة، حيث اخترقنا المنحدرات الصخرية الضخمة على مقربة من الشلالات، ثم دخلنا وادياً خصباً لبضعة أميال ثم صعدنا إلى أعلى الجبل بطريق معْوَجّ، وفي أسفل الطريق حوافّ صخرية تظهر في آخرها غابات الصنوبر الكثيفة... ما أجمل ذلك المكان!

وما زلنا نسير في الطريق الذي يمتد وسط غابات الصنوبر حتى دخلنا - أخيراً - منعطفاً خفياً فوصلنا فندقاً ضخماً. وكانت غرفنا محجوزة فاتجهنا إليها على الفور بأمر هارفي، وكانت غرفاً تطل على القمم الصخرية والمنحدرات الطويلة من غابات

الصنوبر، فأومأ بوارو بيده إليها وسأل هارفي همساً: هل هو هناك؟

- نعم، مكان يُدعى «فلسِنْ لابايرينث»، الصخور فيه مشكَّلة بصورة رائعة، وفيه طريق يخترقها عن يمين المحجر.

هزّ بوارو رأسه وقال لي: تعال يا هيستنغز نجلس على المصطبة ونستمتع بضوء الشمس.

- وهل تظنّ ذلك أمراً حكيماً؟

هز كتفيه استهجاناً. وفي الحقيقة كان ضوء الشمس لطيفاً، وهناك شربنا القهوة ثم صعدنا إلى الطابق العلوي فوضعنا متاعنا في الخزائن، وكان بوارو ساهماً يفكر، وقد هزّ رأسه مرة أو مرتين وتنهد عدة مرات.

وأثار اهتمامي رجلٌ نزل من قطارنا في بولزانوا واستُقبل بسيارة خاصة، وكان رجلاً ضئيل الجسم ملفعاً بثيابه مثل بوارو، كما كان يلبس زيادة على المعطف الكبير والوشاح نظارة داكنة. وكنت مؤمناً بأن لدينا جاسوساً للأربعة الكبار لكنّ بوارو لم يوافقني، إلا أنني عندما أخرجت رأسي من نافذة غرفتي لمحته يتمشى قريباً من الفندق!

أصررتُ على بوارو أن لا ينزل للعشاء، لكنه أبى. ودخلنا غرفة الطعام متأخرين فأُشير إلينا بالجلوس عند طاولة قريباً من النافذة. وبينما نحن جلوس شدّتنا صيحة وصوت تحطّم صحنٍ

سقط على الأرض. كان في الصحن فاصولية خضراء أمام رجل عند الطاولة القريبة منا، وجاء مدير الصالة يعتذر.

وعندما كان النادل الذي أسقط الصحن يقدّم لنا الحساء كلّمه بوارو قائلاً: هذا حادث سيء، لكنها لم تكن غلطتك.

- هل رأى السيد ذلك؟ لم تكن غلطتي، الرجل وثب عن كرسيه.

رأيت عيني بوارو تشعان بالضوء الأخضر الذي كنت أعرفه جيداً، وعندما غادر النادل همس في أذني: هل ترى يا هيستنغز؟ هيركيول بوارو وتأثيره حياً وميتاً!

- هل تظن...؟

لم أستطع أن أُكمل، فقد أحسست بيد بوارو على ركبتي بينما كان يهمس مندهشاً: انظر يا هيستنغز، انظر... **عادته في تفتيت الخبز**... رقم «٤»!

حقاً، صاحبنا الجالس إلى الطاولة المجاورة كان وجهه شاحباً، وكان يفتت الخبز بطريقة آلية... تمعنتُ فيه بحذر؛ وجهه حليق ومنتفخ وشاحب شحوباً مصطنعاً، وتحت عينيه تجاعيد كبيرة، ومن أنفه خطوط عميقة حتى شفتيه، عمره بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين، ولم يكن يشبه أحداً ممن تشبّه بهم رقم «٤» من قبل، ولولا عادته في الخبز لأقسمت أنني لم أره من قبل قطّ.

همستُ: لقد عرفك، ما كان يجب أن تنزل إلى صالة الطعام.

- يا صديقي هيستنغز الرائع، إنما كنت ميتاً ثلاثة أشهر من أجل هذا!

- لكي تُرهب رقم «٤»؟

- لكي أرهبه في لحظة يلزمه العمل فيها بسرعة، وهو لا يعرف أننا عرفناه، يظن أنه آمن في تنكره الجديد. كم أدعو لفلوسي مونرو لأنها حدثتنا عن عادته النافعة هذه!

- ماذا سيحدث الآن؟

- ماذا يمكن أن يحدث؟ لقد بُعِثَ الرجل الذي يخشاه من موته بمعجزة في اليوم الذي نضجت فيه خطط الأربعة الكبار. السيدة أوليفر وآبي ريلاند أكلا غداءهما هنا اليوم وأظنهما ذهبا إلى كورتينا، ماذا نعرف عنهم؟ هذا سؤال رقم «٤» لنفسه... إنه لا يجرؤ على المجازفة.

نهض الرجل عن الطاولة المجاورة وخرج، وقال بوارو بهدوء: لقد ذهب لإعداد خطة صغيرة. ألا نشرب قهوتنا في الحديقة يا صديقي؟ سوف أصعد لآخذ معطفاً.

وخرجتُ إلى الحديقة وأنا مضطرب قليلاً. كلام بوارو لم يقنعني، فرأيت أن أظل على حذر كبير.

وبعد خمس دقائق رجع بوارو، وكان متلفعاً حتى أذنيه: تلك هي احتياطاته المعتادة ضد البرد. قعد جنبي ورشف قهوته بإعجاب، قال: في إنكلترا تكون القهوة رديئة، أما أهل بقية أوروبا فيعرفون كم هو مهم إتقان تحضيرها.

ثم ظهر صاحبنا في الحديقة فجأة، وبغير تردّد أقبل علينا وسحب كرسياً إلى طاولتنا: هل تسمحان أن أجلس معكما؟

قال بوارو: طبعاً، تفضّل.

وشعرتُ بالربكة، صحيح أننا كنا في حديقة الفندق والناس حولنا لكنني لم أكن راضياً بل أوجست خطراً.

وفي غضون ذلك تحدث رقم «٤» بطريقة طبيعية توحي بأنّه ليس إلا سائحاً بلا شك؛ فوصف النزهات ورحلات السيارة وذكر أنه اتخذ موقفاً في مكان مجاور. ثم أخرج غليوناً من جيبه وجعل يُشعله، وأخرج بوارو علبة التبغ الصغيرة، وحين وضع لفافة بين شفتيه مال إليه الرجل الغريب مع عود ثقاب قائلاً: دعني أشعلها لك.

وبينما هو كذلك إذ انطفأت كل المصابيح، وسمعتُ طقطقة زجاج وأحسستُ شيئاً لاذعاً تحت أنفي كاد يخنقني!

* * *

الفصل الثامن عشر
في فيلسن لابايرينث

لم أفقد وعيي إلا دقائق معدودة، صحوتُ بعدها لأجدني أُحرَّك بقوة بين رجلين يُمسكان بذراعي ويساعدانني على النهوض، وكانت في فمي كمامة!

كان المكان حالك السواد لكني ظننتُ أننا لم نكن خارج الفندق، وكل ما استطعتُ أن أسمعه حولي هو صراخ وتساؤل من الناس عما أصاب المصابيح.

أنزلني خاطفي إلى درج لولبي، وعبرنا ممراً في سرداب ثم خرجنا من باب إلى الهواء مرة أخرى ثم إلى باب زجاجي وراء الفندق، ثم التجأنا إلى أشجار الصنوبر حيث لمحتُ رجلاً آخر معي فعرفتُ أن بوارو أسير أيضاً.

وبهذه الجرأة ربح رقم «٤» اليوم! أظنه استعمل مخدّراً سريعاً لعله كلوريد الإيثيل؛ فكسر زجاجة صغيرة تحت أنفَينا، ثم في غمرة الفوضى دفع شركاؤه (ولعلهم الضيوف الجالسون

حولنا) بالكمامتين في فمَينا وأسرعوا بنا خارجين إلى مكان بعيد.

لقد دُفعنا بسرعة في الغابات، وكنا طول الوقت نصعد نحو أعلى الهضبة، ثم في النهاية خرجنا إلى مكان مكشوف عن جانب الجبل فرأينا أمامنا تلاً غريباً من الصخور الرائعة والجلاميد. ولا شك أن هذا المكان هو الفيلسن لابايرينث الذي ذكره هارفي.

في الحال كنا ندور في طرق ملتوية وندخل في الصخور ثم نخرج منها، وفجأة توقفنا، فقد اعترضتنا صخرة ضخمة، فوقف أحد الرجال وبدا وكأنه يدفع شيئاً فتدحرجت الصخرة الكبيرة وكشفت عن نفق صغير له فتحة تؤدي إلى جانب الجبل. أسرعنا ندخله، وكان النفق ضيقاً في البداية لكنه لم يلبث أن اتسع حتى خرجنا إلى غرفة صخرية فسيحة مضاءة بالكهرباء، ثم رُفعتْ الكمامتان عن فمّينا، وبإشارة من رقم «٤» الذي وقف مقابلنا ساخراً فتّشونا وأخرجوا كل شيء في جيوبنا، حتى مسدس بوارو الصغير، وقذفوه على الطاولة.

وأصابني ألم مفاجئ: لقد غُلبنا... غلبونا وتفوقوا علينا.

قال رقم «٤» باستهزاء: مرحباً بكما في قيادة الأربعة الكبار يا سيد بوارو، ما أحسن لقاءك مرة ثانية، فهل كانت العودة من الموت من أجل هذا؟

لم يُجبه بوارو، ولم أجرؤ على النظر إليه فيما أكمل قائلاً:

تعال من هذا الطريق لو سمحت... إن حضورك سيكون مفاجأة لأصحابي.

ثم أشار إلى باب ضيق في الجدار دخلنا منه، فإذا نحن في غرفة أخرى في آخرها طاولة عندها أربعة كراسي، كان الرابع منها خالياً لكنه مكسو برداء المندرين.

على الكرسي الثاني جلس آبي ريلاند يُدخّن السيجار، السيدة أوليفر كانت على الكرسي الثالث وهي تتكئ على ظهر الكرسي بعينيها المتوهجتين ووجهها الخاشع كالراهبة، وجلس رقم «٤» على الكرسي الرابع... لقد كنا في حضرة الأربعة الكبار!

لم أشعر من قبل بوجود لي شانغ ين حتى رأيت كرسيه الخالي. إنه بعيد، في الصين، لكنه سيطر على هذه المنظمة الخبيثة وأدارها.

السيدة أوليفر صرخت صرخة باهتة حين رأتنا، أما ريلاند فكان أكثر ضبطاً لنفسه، فقد رفع حاجبيه الأشيبين وقال على مهل: السيد هيركيول بوارو! إنها مفاجأة، لقد أنجزت عملك بنجاح وخدعتنا حتى ظننا أنك متّ ودُفنت. لا علينا، فقد انتهت اللعبة الآن.

كانت في صوته رنة كأنها رنة فولاذ. ولم تقل السيدة أوليفر شيئاً لكنْ كانت عيناها تشتعلان، ما أسوأ ابتسامتها الباردة!

قال بوارو بهدوء: أيتها المرأة وأيها السيدان، أرجو لكم أمسية طيبة.

شيء مفاجئ، صوت لم أكن أتوقع سماعه جعلني أنظر فيه... بدا رابط الجأش، ولكن مع ذلك لمحت في وجهه شيئاً مختلفاً. ثم تحركت الستارة من خلفنا ودخلت الكونتيسة فيرا روساكوف، فقال رقم «٤»: آه، صاحبتنا الغالية الثقة، عندنا صديق قديم لك هنا يا سيدتي العزيزة.

صعقت الكونتيسة لمرآنا وصاحت: يا لله! هذا هو الرجل الضئيل! آه، إنه كالقط: له تسع أرواح! لماذا تتورط في هذا؟

- سيدتي، أنا مثل نابليون العظيم: أنتمي إلى الكتائب المنظمة.

وبينما كان يتكلم رأيت في عينيها ارتياباً مفاجئاً، وفي اللحظة نفسها عرفتُ شيئاً... الرجل الذي كان بجانبي لم يكن هيركيول بوارو! لقد كان يشبهه كثيراً، رأسه بيضوي كرأسه، ويمشي باختيال مثله، وكان ممتلئ الجسم على نحو جميل، لكن الصوت كان مختلفاً والعينان سوداوين لا خضراوين، ثم الشارب؟ الشارب المشهور.

تقدمت الكونتيسة إلى الأمام وصوتها يرن بالدهشة: لقد خُدعتم... هذا الرجل ليس هيركيول بوارو!

صاح رقم «٤» صيحة شك، لكن الكونتيسة تقدمت من

بوارو ونزعت شاربه فخرج شاربه بيدها، ثم بانت الحقيقة؛ لأن شفة هذا الرجل مخدوشة خدشاً غيّر صورة الوجه تماماً، وهمس رقم «٤»: إنه ليس هيركيول بوارو، فمن يكون إذن؟

وصرختُ فجأة: **أنا أعرف.**

ثم سكتُّ جامداً خشية أن أكون قد أفسدتُ كل شيء، لكن صاحبي التفت إليّ ليشجعني: قلها إن أردت، لقد نجحت الحيلة.

- هذا أشيلي بوارو أخو بوارو التوأم.

قال ريلاند بحيرة: مستحيل!

قال أشيلي: لقد نجحت خطة بوارو نجاحاً رائعاً.

صاح رقم «٤»، وكان صوته خشناً متوعّداً: نجَحَتْ؟ هل تعرف أنك ستموت؟

قال أشيلي بهدوء: نعم، أعرف. أنت لم تفهم أن رجلاً باع حياته ليشتري النجاح. في الحرب رجال يضحون بأرواحهم من أجل بلادهم، وأنا أضحي بحياتي من أجل العالم.

تذكرتُ حينئذٍ أنني كنتُ أرغب بالتضحية بحياتي رافضاً إلحاح بوارو أن أبقى، وشعرتُ بالرضا.

سأله ريلاند بتهكم: وكيف تنفع تضحيتُك العالم؟

- لم تدركوا جوهر خطة بوارو بعد. أولاً: كان مخبؤكم

معروفاً منذ بضعة أشهر؛ لقد كان الزوار وموظفو الفندق من رجال التحرّي، لقد ضُرِبَ حصار حول الجبل لكيْلا تستطيعوا الهروب. إن بوارو نفسه يدير العمليات من الخارج، وقد لطختُ حذائي باليانسون هذه الليلة قبل أن أنزل إلى الحديقة مكان أخي. الكلاب تتعقب الأثر، وسوف يقودهم أثر اليانسون إلى الصخرة في فيلسن لابايرينث حيث المدخل. إذن فافعلوا بنا ما تريدون... الشبكة حولكم مشدودة بإحكام ولن تستطيعوا الفرار.

ضحكتْ السيدة أوليفر فجأة وقالت: أنت مخطئ؛ أمامنا طريق نهرب منه مثل شمشون القديم... سندمر أعداءنا. ماذا تقولون يا أصحابي؟

كان ريلاند يحدّق إلى أشيلي بوارو، ثم قال بصوت غليظ: لعله يكذب.

هزّ الآخر كتفيه استهجاناً وقال: سيبزغ الفجر في ساعةٍ وسترى حقيقة كلماتي. لا ريب في أنهم قد تبعوا آثار قدمي حتى باب فيلسن لابايرينث.

وبينما كان يتكلم سمعنا رَجْع صوتٍ وصراخَ رجلٍ متقطع، فقفز ريلاند من كرسيه وخرج، وقامت السيدة أوليفر إلى نهاية الغرفة ففتحت باباً لم ألحظه من قبل، ولمحتُ في الداخل مختبراً مجهزاً تجهيزاً حسناً مثل مختبرها في باريس. أما رقم «٤» فقفز أيضاً من مقعده وخرج ثم عاد يحمل مسدس بوارو

فأعطاه إلى الكونتيسة وقال وهو متجهم: لا خطر من هروبهما، لكن الأحسن أن يكون معك هذا.

وخرج مرة أخرى، فجاءت الكونتيسة إلينا ونظرت إلى رفيقي قليلاً ثم ضحكت وهي تقول: ما أشد ذكاءك يا سيد أشيلي بوارو!

- سيدتي، دعينا نتحدث في العمل. نحن الآن وحدنا لحسن الحظ، ما هو ثمنك؟

- لم أفهم، أي ثمن؟

- سيدتي، أنت تستطيعين أن تساعدينا على الهروب، أنت تعرفين الطريق السرّي الذي يؤدي إلى خارج هذا المخبأ، لذلك أسالك: ما هو ثمنك؟

ضحكت مرة أخرى وقالت: أكثر مما تدفعه أيها الرجل الضئيل. إن كل الأموال في الدنيا لن تشتريني!

- سيدتي، أنا لم أتكلم عن المال. أنا رجل ذكي وأعلم أنّ لكل إنسان ثمناً مقابل الحياة والحرية، أعرض عليك ما ترغبين.

- إذن فأنت ساحر!

- سميني بما شئتِ.

فجأة تغيرت الكونتيسة فتكلمت بمرارة وعاطفة: هل

تستطيع أن تنتقم من أعدائي؟ هل تستطيع أن تعيدَ لي الشباب والجمال والقلب السعيد؟ هل تستطيع أن تحيي الميت مرة أخرى؟ لقد كان لي طفلٌ فأرجِعْهُ إليّ واذهبْ حراً.

- أوافق يا سيدتي، طفلك سوف يعود إليك؛ هذا ضمان هيركيول بوارو ذاته.

ضحكتْ مرة أخرى ضحكة طويلة: عزيزي بوارو، أخشى أنني قد أوقعتك في الفخ. إن وعدك هذا لطف كبير لكنك لن تنجح وسوف تكون هذه صفقةً من طرف واحد.

- سيدتي، أقسم لك أنني سأعيد طفلك إليك.

- لقد سألتك من قبل يا سيد بوارو: هل تستطيع أن تُحيي الميت مرة أخرى؟

- إذن، فإن الطفل...

- ميت؟ نعم.

تقدم إليها وأمسك بمعصمها: سيدتي، أنا أقسم مرة أخرى.

حدّقت إليه كأنما سَحَرَها. قال: أنت لا تصدقينني... سأثبت لك صدقي، أحضري محفظتي التي أخذوها مني.

خرجت من الغرفة ثم عادت تحمل الدفتر بيدها وهي

ما زالت تقبض على زناد المسدس، وأحسست أن فرصة أشيلي في خداعها كانت ضعيفة؛ فالكونتيسة فيرا روساكوف لم تكن حمقاء.

قال: افتحيه يا سيدتي، والآن أخرجي الصورة وانظري.

وأخرجت صورة صغيرة وهي في عجب، وما أن نظرت إليها حتى صرخت وترنحت كأنها توشك على السقوط، واندفعت ناحية رفيقي تصيح بانفعال: أين؟ أين؟ سوف تخبرني... أين؟

- تذكّري الصفقة يا سيدتي.

- نعم، سوف أثق بك. هيا بسرعة قبل أن يعودوا.

جرّته وهي تمسك بيده، وبهدوء خرجا من الغرفة وتبعتهما، ومن الغرفة الخارجية قادتنا إلى النفق الذي دخلناه أول مرة، ثم دارت عن اليمين حيث تفرّع الممر لكنها قادتنا إلى الأمام بلا تردد أو شك وبسرعة. قالت وهي تلهث: يا ليتنا نصل عاجلاً ونخرج إلى المنطقة المكشوفة قبل أن يقع الانفجار!

وما زلنا نركض، وعرفت أن النفق يؤدي مباشرة إلى داخل الجبل وأننا يجب أن نخرج أخيراً إلى الجانب الآخر منه لنقابل وادياً مختلفاً. تصبب العرق من وجهي ولكني واصلت العدو، ثم رأيت شعاع النهار من بعيد، كان يقترب أكثر فأكثر، ورأيت شجيرات خضراء نامية شققنا طريقنا من بينها إلى بقعة

مكشوفة وصلناها مع ضوء الفجر الباهت الذي جعل كل شيء يبدو ورديا.

كان كلام بوارو عن حصار الجبل حقيقة، فما أن خرجنا حتى أمسك بنا ثلاثة رجال لكنهم أطلقونا مرة ثانية مع صرخة ذهول، صرخ رفيقي: أسرعا، أسرعا، لا وقت نضيعه.

ولم يكن مقدَّراً له أن ينهي كلامه؛ فقد ارتجّت الأرض واهتزّت تحت أقدامنا وكان انفجاراً مرعباً، وبدا أن الجبل كله يتفسّخ ويتشقق، طرنا عالياً في الهواء... وفقدتُ الوعي.

* * *

عندما رجعتُ إلى وعيي كنت على سرير غريب في غرفة غريبة: شخصٌ ما كان عند النافذة التفت وخطا ووقف بجانبي. لقد كان أشيلي بوارو... أو... لا، إنه هو! هذا الصوت الساخر المعروف أطفأ كل شكوكي.

- نعم يا صديقي، إنه هو. أخي أشيلي ذهب إلى البيت مرة أخرى، إلى أرض الأساطير. **أشيلي كان أنا طوال الوقت!** لا تحسب أن رقم «٤» هو من يستطيع أن يتنكر دون غيره... المسحوق في العينين، والتضحية بالشاربين، وأثر جرح حقيقي من الضربة التي سببت لي ألماً قبل شهرين... لكني لم أستطع أن أجازف ببديلٍ متنكّرٍ تحت عين رقم «٤» التي تشبه عين النسر. ثم اللمسة الأخيرة هي يقينك أن لي أخاً اسمه أشيلي بوارو. ما أغلى

مساعدتك لي! إن نصف النجاح الذي حققناه في الانقلاب يرجع فضله إليك. إن عقدة المسألة كلها كانت أن أجعلهم يظنون أن هيركيول بوارو ما زال حراً طليقاً يوجّه العمليات، لكن كل شيء كان صادقاً: اليانسون، والحصار... كل هذه الأشياء.

- ولماذا لم تُرسل بديلاً عنك فعلاً؟

- وأدعك تواجه الخطر منفرداً؟ ثم كان في نفسي أمل أن نهرب مع الكونتيسة.

- لكن كيف أقنعتها بالله عليك؟ لقد كانت قصة سخيفة لكي تجعلها تصدق كل ذلك عن طفل ميت؟

- الكونتيسة في ذهنها حدة كبيرة يا هيستنغز. لقد فوجئت أولاً من شخصيتي المتنكرة لكنها عرفت الحقيقة بعد ذلك، حين قالت: "ما أشد ذكاءك يا سيد أشيلي بوارو" عرفتُ أنها قد خمّنت الحقيقة، لذلك كان الوقت مناسباً تماماً لألعب ورقتي الرابحة.

- بكل ذلك الهراء عن إعادة طفل إلى الحياة؟

- تماماً، لكن الطفل كان معي منذ البداية.

- ماذا؟

- نعم؛ أنت تعرف شعاري: «كن مستعداً». حين وجدت الكونتيسة متورطةً مع الأربعة الكبار اجتهدت لأعرف كل

ما أستطيع عن ماضيها، فعلمتُ أنه كان لديها طفل قيل إنه قُتل، ثم نجحت - في النهاية - في اقتفاء أثر الولد ودفعتُ مالاً كثيراً حتى جاز لي أن أتبنى الطفل. لقد كاد الطفل المسكين يموت لولا أن أبقيتُه عند أناس طيبين في مكان آمن وصوّرته في بيته الجديد، وهكذا، حين آن الآوان كان انقلابي حاضراً.

- ما أعظمك يا بوارو، ما أعظمك!

- لقد كنتُ مسروراً بأنني فعلت ذلك؛ لأنني كنت معجباً بالكونتيسة وكنت سآسف لو أنها ماتت في الانفجار.

- وماذا عن الأربعة الكبار؟

- لقد تم انتشال كل جثثهم الآن، ولم نعرف جثة رقم «٤» تماماً، فقد تمزق جسده إرباً. كنت أتمنى أن لا يحدث ذلك، ولكن انظر إلى هذه.

وأعطاني صحيفة فيها خبر انتحار لي شانغ ين قائد الثورة الحديثة الفاشلة في الصين. ثم قال: خصمي العظيم، كان قدري أن لا ألقاه وكلانا حي، حين بلغه نبأ الكارثة هنا قتل نفسه. إنه عقل عظيم يا صديقي، عقل عظيم.

ها نحن قد واجهنا الأربعة الكبار وهزمناهم يا صديقي، والآن ستعود إلى زوجتك الساحرة، وأنا سوف... سوف أعتزل الناس.

إن أعظم قضية في حياتي قد انتهت، أي شيء آخر سيبدو تافهاً بعدها. سوف أعتزل الناس، وربما أزرع الكوسا وأتزوج وتطمئن نفسي.

ضحك كثيراً، ثم قال مرة أخرى: أتزوج وتطمئن نفسي... من يدري؟

* * *

اجاثا كريستي & كتاب رواية

facebook.com/groups/agathalovers/

مكتبة الرمحي أحمد